سلسلة

خواطر تاريخية

الحلقات 1 إلى 20

الكاتب الأديب

سعداوي التركي

تصميم وإخراج مجلة الواحة
wahatona.com

لبث صاحب هذه السطور عدة سنوات من شبابه يمارس عملاً واحداً تعلق بعمله الوظيفي، وهو الخطابة. في كل مكان تقريباً. تدفعه عاطفة مشبوبة في إيصال ما يعتبره حقاً للناس، عاطفة لا تساندها خبرة كافية. يكفي أن يقتنع بأمر ما حتى ينهض وكله تحمس ليلقي على من حضره ما توصل إليه؛ دون اعتبار للمكان وما تفرضه بعض الأمكنة من تحفظ. ودون اعتبار للزمان وما تحتاجه كثير من الأزمنة لانتقاء ما يقال وما يؤجل.

ولكن أهم ما نسيه المذكور أنه ينتمي للبشر، وحتماً له قدرات لا يتخطاها، وإن جهل ذلك أو تجاهله.

فحدث ما ليس منه بد، انقطع النفس، وقلت الحيلة، وخارت القوى، وتبدد غرور الشباب! وتوقف عن الخطابة.

وإنّ لصاحبنا في فن الكتّابة لقدرة، وفي قرض الشعر نصيباً. فاختار بعد مرور أعوام أخرى وفي سن الكهولة أن يخط عواطفه وأفكاره شعراً. ومن طبيعة الشعر أن يأتي بعد إلهام، وعلى أزمنة تتباعد بتباعد الإلهام؛ فما حدث من أخطاء الشباب غير ذوي الخبرة لا محل له الآن.

وفتح الله عليه باثنتي عشرة قصيدة من الطوال والأوساط في ثماني سنوات، ولم يكن متلقوها بأقل انبهاراً من سامعي خطبه في الزمن القديم، وإن كانوا أقل عدداً!

وأراد الله ولا راد لقضائه أن يضيع من شاعر اليوم وخطيب الأمس بعض ولده، ويهجره أعز أحبابه؛ فيتجمد منه العقل، وتعتصر يد قاسية فؤاده،

ويذهل عن كل نفيس، وتذهب إلى حيث لا يدري قصائده!

راح وغدا إلى وظيفته وما به حياة، وألقى دروسه على طلابه دون روح.

وما عاد يسمي نفسه إلا بالميت الحي، وإن جلجلت ضحكاته أحياناً كالصرخات!

ثم يطرق بابه حب عفيف، وهوى شريف، فتستيقظ من ملكاته بعض أجزائها، وفي البوح الذي لا حرام فيه ولا ريبة تتحرك أنامله على لوحة مفاتيح حاسبه وهاتفه، فيكتب لشخص واحد، مختصراً فيه كل الناس! وما هو كذلك، لكنها عاطفة صاحب الخمسين!

وخلال طوره الأخير يقبل شهر رمضان، فيعتريه الحرج الشديد، ذلك أن الشهر الكريم يتطلب قربات، وبعض الزهد فيما أبيح من الطيبات.

فتنضم لكتاباته العاطفية بعض خواطر عن التاريخ الذي يعلمه.

كتبها على واجهة الفيسبوك وهو لا يعلم أين تبلغ من الأمكنة. وإن قصد بها أن تشهد له عند الله يوم القيامة بما أراد من نفع الناس في دينهم ودنياهم، وإدخال الرجاء في صلاح الحال إلى القلوب اليائسة.

ويتصل خبر هذه الخواطر ببعض أهل المغرب الشقيق، فيرون فيها استحقاقاً للنشر في فضاء مختلف عن واجهة الفيسبوك. فقدر الله ووفق القائمين على مجلة الواحة المغربية في إذاعتها على الناس. وهو مما يستوجب لهم الشكر الجزيل!

هذه قصة "خواطر تاريخية" وما أحاط بها من ظروف حياتية ونفسية. وإني سائل كل من طالعها أن يدعو لي بالقبول ورضا الله سبحانه!

والحمد لله أولاً وآخراً....

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم تاركا في دولة الإسلام ثلاث فئات من المسلمين:

أولها أهل المدينة المنورة، ومقام الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم عشر سنين. أكسبهم علما بالدين وتربية عظيمة بالمعاشرة والقدوة والمواقف والأحداث.

والفئة الثانية من دخلوا في الإسلام بعد حربهم ضده وتسلطهم على أهله إيذاء ومكابدة وقتا طويلا نسبيا، لكنهم خضعوا له في النهاية، وهؤلاء عندهم العلم بالإسلام بشكل عام، لكنهم لم يفوزوا بمصاحبة النبي صلى الله عليه وسلم بطريقة تكسبهم ما فاز به أهل المدينة من تربية.

وسمي هؤلاء بالطلقاء، إشارة إلى عفو الرسول صلى الله عليه وسلم عنهم بعد فتح مكة، وقوله لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

والفئة الثالثة هي قبائل العرب المنتشرة وتجمعاتهم الصغيرة والمتباعدة في الجزيرة العربية، وهؤلاء من سموا بالأعراب. ولا تمتاز هذه الفئة بعلم أو تربية، إلا نفرا قليلا من القبائل ارتحل إلى المدينة وانتفع بالعلم والعمل الصالح.

من الصنف الأول ظهر حكام الدولة الأوائل، الخلفاء الراشدون ومن عاونهم من كبار الصحابة وأبناؤهم وتابعوهم.

بينما حكم الدولة بعدهم من ينتمون إلى الطلقاء، وهم خلفاء بني أمية.

وظهر من الأعراب الخوارج ، وكانوا حربا منهكة على كل دولة .

أما كيف بدأت دولة الخلفاء الراشدين فهذا ما تعرضه السطور القادمة:

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينص صراحة على اسم للخليفة من بعده.

ولخطورة الأمر على الإسلام ومستقبل المسلمين انشغل بعض الصحابة عن تجهيز الرسول صلى الله عليه وسلم ودفنه بالبحث في هذا الشأن.

هؤلاء كانوا الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج.

كان بينهما في الجاهلية عداء ودماء وثارات، ولم ينقذهم من كل هذا إلا الإسلام، وفي هذا نزل القرآن الكريم: {لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ} [الأنفال: 63].

استشعر هؤلاء الأنصار ما كانوا فيه وما صاروا إليه من أخوة ومحبة فيما بينهم؛ ولذلك عقدوا اجتماعا في حديقة تسمى بسقيفة بني ساعدة، وتشاوروا حتى انتهى بهم اجتهادهم إلى انتخاب سعد بن عبادة رضي الله عنه.

علم المهاجرون بذلك وعلموا أن هذا الإجراء سيضر بالإسلام والمسلمين وبالدولة، لأن بقية العرب لن يرضخوا لحكم أحد من خارج قريش التي كانت لها السيادة الدينية قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وتأكدت هذه السبادة بانتسابه صلى الله عليه وسلم لها، هذا إن كان العرب سيقبلون بالخضوع أصلا!.

بعد مناقشات في السقيفة اتفق المجتمعون على تولية أبي بكر الصديق وبايعوه على ذلك، ثم انتقلوا إلى المسجد في اليوم التالي وبايعه المسلمون بيعة عامة.

قد يرى البعض أن اجتماع الأنصار أولا كان شرا محضا، والأمر في اجتهادي الضعيف ليس كذلك، فالقوم نيتهم خالصة، ولم يقصدوا تسلطا على الناس بما فعلوه، والدليل أنهم نوقشوا واقتنعوا فعادوا للصواب وارتضوا خطة المهاجرين.

لكنهم باجتماع السقيفة أرسوا مبدأ النظر للمصالح والمفاسد أولا، وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الضيقة ثانيا.

رضي الله عن الأنصار، فما أجلّ عطاءهم!

وما أجمل مثاليتهم!

سنتان وثلاثة أشهر وعشرون يوماً تلك كانت خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وهي فترة قصيرة بالنسبة إلى حكام غيره، لكنها كانت حاسمة في إنقاذ الإسلام.

لقد كان على من ثبت على دينه من المسلمين مع أبي بكر مواجهة ارتداد العرب عن الإسلام بالكلية، وعودتهم لعبادة الأوثان، وكذلك منع كثير من العرب لفريضة الزكاة، وتحفز الأعراب حول المدينة لاجتياحها.

أوقات عصيبة، وأين الجيوش اللازمة لمواجهة كل ذلك؟ لم يبق على الإسلام إلا مكة والمدينة والطائف.

ويشارك رجال من طينة ممتازة في أخطر الأحداث ! وقد وجدت من سيرة بعضهم ما يبعث الأمل في النفوس اليائسة من قومي!

رجل من أهل مكة اسمه " سهيل بن عمرو " .

عرفناه قبل إسلامه خطيبا بارعا مسخرا موهبته اللسانية ضد الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وعرفناه أسيرا يوم بدر ، وهنا يُعرض على الرسول صلى الله عليه وسلم فكرة تشويه فم هذا الرجل حتى يفقد موهبته الكلامية. ورفض الرسول صلى الله عليه وسلم هذا العرض قائلا لصاحبه:

لعله يقوم مقاماً تحمده !

مرت الأعوام وأسلم أهل مكة قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بقليل،

لكنهم لما ارتدت العرب اضطرب أمرهم، وشاع القلق، وفي النفوس ما فيها!

حتى إن والي مكة توارى عن الانظار.

وهنا يقف الخطيب المفوه " سهيل بن عمرو " في أهل مكة هاتفاً :

يا معشر قريش، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد، والله إن هذا الدين ليمتدن امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما...

وضمّن خطبته بعض ما قاله أبو بكر الصديق لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم.

وثبتت قريش على إسلامها.

العدد القليل من الجنود الذي ظل في يد الصديق والمتفوق في صفاته هو الذي أعاد الجزيرة العربية إلى الإسلام.

وبالعلم والشجاعة أحدثت القلة الفارق وانتصرت على الكثرة.

من المعارك العسكرية اللافتة "غزوة مؤتة"، وقد أخذت أقلب النظر في هدف هذه الغزوة، في التوقيت الذي وقعت فيه، فقد جرت أحداثها بين المسلمين والروم وحلفائهم من العرب قبل فتح مكة وإخضاع الطائف.

والتفكير البديهي أن ينشط المسلمون عسكرياً بعيداً عن محيط نفوذ الروم وفارس، وهما الدولتان الكبريان آنذاك.

وهداني اجتهادي إلى أنها كانت لحماية مصلحة الهيبة والسمعة، ولم يكن هدفها استراتيجياً، وأن القواد الذين تتابعوا على إمارة المسلمين في هذه الغزوة فهموا ذلك حق الفهم.

قبل إرسال الجيش إلى مؤتة في العام الثامن للهجرة أرسل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من المسلمين رسولاً لملك "بصرى" لكن شرحبيل الغساني عامل الروم على "البلقاء" قبض عليه وقتله!

وهو عمل يضر هيبة وسمعة الدولة الإسلامية الناشئة؛ فكأنها رسالة استخفاف؛ فلم يعهد قتل الرسل بين الكيانات المحترمة.

هذا استدعى إجراء عسكرياً ما لحماية الهيبة والسمعة، والنتائج على الأرض ليست بأهمية فكرة الخروج.

الجنود العاديون في جيش المسلمين حركتهم كما اعتادوا فكرة الجهاد والتضحية، وليس أفضل من هذه الفرصة لنيل الشهادة، وتقدم قادتهم حتى قتلوا مقبلين غير مدبرين، وكانوا على رأس ثلاثة آلاف مقاتل في مواجهة مائتي ألف من الروم وحلفائهم من نصارى العرب..

واصطلح الجيش على تولية خالد بن الوليد، وسار في يوم قتاله الأول سيرة من سبقه من القادة، وكل هذا كان كافياً لإثبات الهدف من الغزوة. والاستمرار في المعركة سيخرج بها لأهداف أخرى لما يأت ميعادها..

اتخذ خالد قراره بالانسحاب، ونفذه بما لا يخل بهدف الغزوة الأساس، فلم يكن تراجعه فوضوياً، بل منظماً محترفاً.

ووصلت هيبة الجيش المسلم إلى الذروة بعزوف الجانب الآخر عن تتبعه، رغم الفارق الهائل في العدد والعدة.

كان ما قلناه في الحلقة الأولى حول تولية الصديق يحتوي سؤالاً مهماً، فحواه: هل الأمة قادرة على انتخاب ولي أمر صالح لإقامة الدين وسياسة الدنيا..

وذكرنا هناك أن البيعة لأول خليفة للمسلمين تمت بالشورى وفي مناخ يطلب المصلحة العامة، وتظلله شجرة التقوى لدى المهاجرين والأنصار..

ومضى عامان تقريباً والمسلمون قادرون على الإجابة الصحيحة على كل التحديات في الداخل الذي ارتد بعضه عن الدين ، ومنع بعضه الزكاة!

ثم اشتبكت الأمة - وفي وقت واحد - مع فارس والروم في ملاحم عسكرية؛ مات الخليفة ولما تحسم نتائجها، وإن ظهرت بشريات نصر من أروع ما رأت الدنيا!

في هذه الظروف مرض أبو بكر رضي الله عنه، والمسلمون - وعلى رأسهم قادتهم من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم - منصرفون إلى مواصلة جهادهم وحسم الأمر مع الفرس والروم؛ وهؤلاء القادة هم من يصغي لهم الناس في الأمور الخطيرة، ممن سماهم المتخصصون فيما بعد: أهل الحل والعقد.

أدرك الصديق رضي الله عنه حاجة الناس لاتخاذ قرار حاسم يتعلق بولاية الأمر من بعده، ويناسب الموقف الدقيق الذي داهمهم بمرضه!

فماذا لو اختلف الناس والجيوش تقاتل في جبهتين!

وماذا لو امتد الجدل حول شخص الخليفة إلى صفوف هذه الجيوش، وهي أحوج ما تكون إلى عزيمتها ويقظتها ووحدتها!

شرع الرجل العظيم في العمل، وبحزم وبحكمة جعل الشورى تدور حول شخص الفاروق عمر رضي الله عنه وحده، بعد أن حسم الأمر بينه وبين نفسه في المفاضلة بين عمر وعلي.

واجتهاده في هذه المفاضلة كان لمصلحة المسلمين؛ حيث إن عمر "ربما يريد الأمر فيرى في طريقه إليه عقبة فيدور إليه".

أما علي فإنه "يرى الاستقامة لا يبالي بالعقبة تقوم بين يديه؛ فهو بهذا إلى الشدة أميل منه إلى اللين".

وسبحان من رزق هذا العقل هذه الفطنة وهذه الفراسة، ولا يوحى إليه، ولا يعلم الغيب!

وبدأ أبو بكر في استشارة الباقين معه في المدينة المنورة من المهاجرين والأنصار، فلما سأل عبد الرحمن بن عوف عن رأيه في الفاروق قال: "هو والله أفضل من رأيك فيه، ولكن فيه غلظة".

فأجابه الصديق: "ذلك لأنه يراني رقيقاً، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما فيه".

أما رد عثمان بن عفان رضي الله عنه: "اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله".

وأما رد أسيد بن حضير رضي الله عنه: "اللهم أعلمه الخير بعدك، يرضى للرضا ويسخط للسخط، الذي يسر خير من الذي يعلن، ولن يلي الأمر أحداً أقوى عليه منه".

وأخيراً أملى الصديق على عثمان بن عفان وثيقة جاء فيها:

"إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فإن بر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه. وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب".

رضي الله عن الجميع !

"نعم" و "لا" أو العبرة بالنهاية..

تاريخ الدنيا حافل بـ "نعم" و "لا" وهما يتبادلان المواقف دوما. ويتغير الناس بينهما في قبول ورفض، يثبت أو لا يثبت.

ولأمر ما سجل أحد الشعراء العرب موقفه منهما، فمدح من يستقر أمره على"نعم" بعد "لا". وذم من ينكص متراجعا عن أمر سبق أن قال فيه "نعم".

حسنٌ قولُ نعم من بعد لا

وقبيحٌ قولُ لا من بعد نعم

ومن أروع مواقف "نعم" بعد "لا" ماحدث في السيرة العطرة بعيد غزوة الطائف، وفي أول المعركة تزين في عين الجيش المسلم عدده الكبير، بينما كان العدو يحاول معادلة الفارق في العدد بخطة جيدة، ترتكزعلى معرفة بأرض المعركة، واستغلال عنصر المفاجأة.

وتم للعدو ما أراد إلى حين. وولى المسلمون مدبرين!

ثم تنادى الأنصار وغيرهم بالعودة حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم ثابتاً، وانتهى الأمر بانتصارهم.

وحينها غنم المسلمون غنائم هائلة لا عهد لهم بها.

والعقول البشرية تتوقع أمرين لا ثالث لهما عند توزيع هذه الغنائم، الأول أن توزع بالتساوي بين المنتصرين. والآخر أن يميز أهل البذل والعطاء على غيرهم. وهم في هذه الحال أهل المدينة من الأنصار، وما قدموه لنصرة الدين

أمر يملأ النفوس إعجابا منذ أن حدث!.

لم يعط الرسول صلى الله عليه وسلم الأنصار شيئاً مما غنموه في معركة رسموا فصلها النهائي، بعودتهم ليثبتوا مع النبي صلى الله عليه وسلم والهزيمة وشيكة!.

وبدلا من ذلك قسمت الغنائم في أهل مكة وبعض المؤلفة قلوبهم وبعض الأعراب، وأولئك كانوا بالأمس القريب يناوئون الإسلام وأهله، وأسلموا حين لم يكن من ذلك بد!

وذلك ما حيّر الأنصار ورفضوا تلك القسمة في ذوات أنفسهم، وفي بعض كلامهم.

وبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فجمعهم وخطب فيهم بادئاً بذكر مقولتهم التي تعجبوا فيها من حرمانهم وأخذ غيرهم ممن لا سابقة لهم ولا عطاء.

ثم أكمل خطبته ذاكراً أنه جاءهم ضلالاً فهداهم الله به، وأعداء فتألفت قلوبهم، وهم يردون عليه أن نعمة الله عليهم أفضل!.

وواصل حديثه الذي زاوج فيه بين الإقناع والعاطفة عارضا أنهم ربما يقولون: جاءنا طريداً خائفاً مخذولاً ليس في يده من الأمر شيء فوجد عندهم الأمان والنصرة حتى لقي ما بين يديه الآن، وإن فعلوا لكانوا صادقين ولصدقهم من يسمع..

ثم أجهز على كل ما حاك في صدورهم بسؤاله:

ألا ترضون أن يعود الناس بالشاة والبعير، وتعودون برسول الله صلى الله عليه

وسلم ؟!

وكانت هذه القضية محل نظر من البعض، وكان هناك من يتوقع مكوث النبي صلى الله عليه وسلم في أهله بعد أن تم له أمره.

وهنا لم يتمالك الناس أنفسهم من التأثر فكان البكاء، وكانت "نعم" التي نسخت "لا".

"نعم" و "لا" أو العبرة بالنهاية..

لن يعدم إنسان ناضج أن يتذكر أمثلة من التاريخ، أو من حياته الشخصية على تغير الآراء من "نعم" إلى "لا". وقد استقبحها شاعر قديم :

إن "لا" بعد "نعم" فاحشة

فبلا فابدأ إن خفت الندم

ومن أقبح نماذج تغير الناس ونكوصهم على أعقابهم ما حدث في كربلاء مع الحسين بن على رضي الله عنه.

ويروي التاريخ أن خلافة المسلمين آلت إلى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان أبوه قد وطد له هذا في حياته، لكنه حذره من أربعة نفر يمكن أن يشغبوا عليه وينازعوه الحكم، ومنهم الحسين بن علي رضي الله عنه.

وللأمانة قال له:

وأما الحسين فإن أهل العراق لن يتركوه حتى يخرجوه، فإن خرج وظفرت به فترفق به؛ فإن له رحماً ماسة!.

حدث الأمر كما توقع معاوية رضي الله عنه، وأرسل أهل الكوفة بالعراق الكتب للحسين رضي الله عنه يبايعونه بالخلافة، ويدعونه للقدوم عليهم.

ورأى عبد الله بن عباس رضي الله عنه ألا يخرج الحسين إلا بعد أن يضبط الكوفيون بلدهم ويقيموا أميرهم، فإذا حدث ذلك كان دليلاً على ثباتهم في البيعة.

ولم يستجب الحسين لهذا الرأي السديد، وعبثا حاول ابن عباس رضي الله عنه إثناءه عن التسرع، ولما رأى تصميمه ودعه بقوله:

أستودعك الله من قتيل!.

لم يثبت أهل الكوفة على ما فعلوه، وما إن هددهم واليهم بقدوم جيوش الدولة الأموية من دمشق لإبادتهم حتى تخلفوا عن نصرة الحسين، بل إن منهم من تبرأ من الكتب التي أرسلت.

لم يكن ذلك وحده ما جرى من أخطاء، فالقائد المحنك يحدّث معلوماته أولاً بأول، كي لا تفاجأه الأحداث.

لقد علم الحسين بتراجع أهل الكوفة عن نصرته وهو في الطريق عند كربلاء، وكانت معلوماته القديمة مخالفة للواقع.

وفي سبعين من أهل بيته واجه جيشا من ثلاثين ألفا، وحاول الحسين أن يتدارك الأمر بالعودة من حيث أتى لكن خصومه لم يرضوا بذلك، وقتلوه ومن معه!.

ولم تقدر الأمة لأسباب كثيرة على مقاومة توريث الحكم.

ولهذا حديث آخر.

هذه أبيات للمعتمد بن عباد درسناها في دار العلوم صغاراً ، وصاحبتنا بعد التخرج ، ونقلناها لمن عرفناهم في معامع الحياة شباباً وكهولاً ..

قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو ع على فمي السم النقيع
إن تستلب عني الدنا ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع

كنا نقرأ هذه الأبيات فتمتلئ نفوسنا إعجاباً بهذه الروح التي تأبى الاستكانة، والتي تفيض بالكرامة!

ثم ازدادت معرفتنا بالمعتمد وعصر الطوائف في الأندلس، والذي جاء بعد سقوط الخلافة الاموية هناك.

وتلا ذلك فترة مظلمة واضطرابات صدعت كيان الدولة الموحدة؛ فسطا على أمجاد الأجداد أمراء متنازعون، يدفعون الجزية للفرنجة ولا يقبلون التوحد خلف رجل منهم!

والمعتمد بن عباد واحد من هؤلاء الأمراء وهو أقواهم.

وهذا الرجل يعد شاهداً على عصر الطوائف في الأندلس؛ عصر التناقضات، وكان المسلمون هناك على شفير هزيمة تطيح بهم من الجزيرة!

للرجل مواقف شجاعة، ومواقف تدل على حسنات الملوك ومعايبهم وتقلبهم، فهو ابن عصره والشاهد عليه، وهو ضحيته في نهاية الأمر!

من شاء أن يتحدث عن الترف والأبهة فسيجد عند الرجل مصداق ذلك.

ومن أحب الأدب الرائع فهو الشاعر الرقيق.

وهو الملك الذي يقتل صديقه ابن عمار.

وهو الملك الذي دهمته وبقية ملوك الأندلس خيول الفرنجة بقيادة ألفونسو السادس فولى وجهه والملوك الضعاف نحو امتدادهم الاستراتيجي في الصحراء المغربية، حيث أسس المرابطون دولة قوية تقوم بواجبها حق القيام.

بان لكل ذي عينين في نهاية عصر الطوائف أن الفرنجة سيستردون الأندلس، وأن الملوك في أدنى درجات القوة، وأن الاحوال الاجتماعية لا تشجع على ظهور البطل من صفوف الجماهير، إضافة إلى التهتك وخروج الناس في غرائزهم نحو كل غريب، وإن بقي الحب الشريف والأدب العظيم والعبادة الصادقة.

عقد الملوك اجتماعاً لاتخاذ قرار إزاء الخطر الداهم؛ وأرسلوا - وهم كارهون - بطلب النجدة من سلطان دولة المرابطين "يوسف بن تاشفين".

ولما قيل بينهم إنه إن جاء فلن يعود قال المعتمد قوله الشهير:

رعي الإبل خير من رعي الخنازير!

جاء المرابطون وهزموا الفرنجة في معركة لا تقل روعتها عن اليرموك والقادسية، ثم تأملوا بعد النصر فيما أصاب المسلمين في جزيرة الأندلس فوجدوا الملوك أكبر أسباب الفشل؛ فأزاحوهم عن عروشهم الواحد تلو

الآخر!

انتهت حياة المعتمد نهاية شديدة البؤس والهوان، وعاش ومن بقي من أسرته ذلاً يستدر الدمع ، وغنم الشعر قصائد رائعة، ولكن أهم ما بقي من المعتمد بن عباد قوله: رعى الإبل خير من رعي الخنازير.

لا تشعر الأقليات بكامل الاطمئنان وهي تعيش في ظل الأغلبية. ربما تظهر غير ذلك مداهنة أو سياسة أو مخادعة لكنها تظل في أسر المخاوف والهواجس وأحياناً تستبد بها الأوهام!

والأقليات الذكية تعتمد عدة أساليب لمعادلة الفارق العددي بينها وبين الأكثرية، منها الارتقاء التعليمي والثقافي، ومنها تملك المناصب، ولكن أشهر أساليب الأقلية كنز الأموال والثروات.

وأحياناً تحدث مفارقات تاريخية تقفز بأحلام الأقلية لسقف غير واقعي، فتخطو خطوة نزقة تعود عليها بكارثة تاريخية، فتستقر تلك الكارثة في ذاكرتها الجمعية، فتمعن في هواجسها، وتنغلق على نفسها وقتاً طويلاً أو قصيرا، ثم تعود سيرتها الأولى في البحث عن أسباب القوة.

من الحوادث التاريخية اللافتة ما حدث لليهود في "غرناطة" بالأندلس إبان عهد الطوائف. وقد توزعت الإمارات على العديد من الحكام بعد ضياع خلافة الأمويين.

كانت غرناطة من نصيب البربر ، حكمها أولاً "زاوي بن زيري" ثم "حبوس بن ماكسن" ثم ابنه "باديس".

يقال إن "حبوس" سار في الناس أفضل سيرة، ولا تعرف له نقيصة إلا اختياره ليهودي ليكون كاتبه، أو وزيره بتعبير آخر.

ومن هذا اليهودي الذي حدثت له هذه الحادثة العجيبة في تلك الأزمان التي لا ترفع اليهود؟

اسمه "صمويل بن النغرلة"، كتب رسائل بالعربية للوزير ابن العريف، وعرفه ذاك بحبوس. وبهذه الطريقة شق طريقه في خدمة الأمير، وعينه وزيراً له. في سابقة نادرة!

أدرك "صمويل" احتياج سيده للأموال فاستخدم أبناء ديانته من اليهود موظفين لجمع الضرائب. وفي معاملة الناس تظاهر بالرحمة بهم.

لكن كان للرجل مشروعه. ولم يضيع وقتاً، فقد عمل على تحسين أحوال الطائفة العلمية والاجتماعية، وأنفق من ماله الخاص للإنفاق على فقراء الدارسين للمناهج اليهودية. وبالغ في ذلك حتى إنه أنفق على الطلبة في غير الأندلس، في مصر وغيرها من بلاد المشرق!

وظل هذا الوزير في منصبه مراوحاً بين خدمة الأمير وخدمة الطائفة اليهودية ومهادنا للرعية حتى وفاة "حبوس" وتولي ابنه "باديس".

وهذا الأخير صاحب شخصية تصادمية مع العرب، متعصب للبربر، لكن اليهودي احتفظ بمنصبه، واستمر في مشروعه الذي بدأه لنهضة اليهود، في هذا الظرف التاريخي النادر.

تعرض مشروع صمويل لخطر داهم قبل وفاته.

والمختصر أن كراهية "باديس" وتعصبه ضد العرب بلغا مدى بعيداً، فاتخذ قراراً غبيا بإبادتهم، وأمر جنده بالتنفيذ في صلاة الجمعة!!!!

أدرك صمويل أن حماقة الأمير ستدمره، وسينهار نظامه بالكلية، وسيتداعى

كل ما حققه اليهود في سنين طويلة. وحاول إقناع سيده بنزق هذه الخطوة، ولم يلق له سمعا، فعمد إلي تحذير الناس من الصلاة يوم الجمعة!

وبلغ "باديس" أن سره انكشف فاتهم وزيره بذلك، لكنه أحسن التملص، وطلب من الأمير أن يكون من الشاكرين لعدم تمام الخطة، وسأله متعجبا مدعيا للبراءة:

ومن ينكر على الناس الخوف وقد عبأت جيشك بينما لم يدهمك عدو؟

ثم تولى الوزارة بعد موت صمويل ابنه يوسف، وستتحرك أحداث غرناطة وتدور حول اليهود كطرف رئيس ومؤثر في هذه الإمارة، التي اشتهرت في التاريخ بأنها آخر ما وقع في يد الأعداء.

قلنا في الجزء الأول إنه قد ابتدأت في إمارة غرناطة بدعة لم تُعرف في مملكة مسلمة ولا غير مسلمة، وهي تولي يهودي منصباً يساوي ما يشغله رئيس وزراء بتعبيرنا المعاصر.

تصور "باديس بن حبوس" وأبوه من قبله أن "صمويل" ياعتباره ذمياً لا تتطلع نفسه إلى حكم، وظل غافلاً عن إجراءاته الخبيثة التي تؤهل اليهود لوضع استثنائي في الفوضى السياسية التي عمت الأندلس.

ورث "يوسف بن صمويل" منصب أبيه الوزاري وورث أحلامه أيضاً؛ فخطا خطوات أبعد، واستطاع أن يحظى بثقة باديس المطلقة بعد أن كشف له أكثر من مؤامرة عليه، وكلما فعل ذلك ازداد نفوذه، وازداد انعزال الأمير عاكفاً على شرب الخمر، وحوله عبيد وجوارٍ من صناعة اليهودي يحصون عليه أنفاسه ويبلغونه كل التفاصيل.

ومما علمه أن ابن الأمير ووريثه "بلقين" يرفض نفوذ اليهودي ويسعى في إقصائه، لكن ذلك الرفض جاء بعد أن جرت في النهر مياه كثيرة! ودبر الوزير مكيدة لبلقين انتهت بمصرعه.

فزع باديس لهلاك ولده، لكن القاتل اقنعه باتهام بعض صحبه وبعض العبيد، وقتل منهم البعض.

وتطورت الأحداث بتعيين يهودي صاحباً للشرطة في غرناطة!!!

السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان وبقوة: ألم تكن كل هذه الغرائب محركة لأي رد فعل لدى الناس؟

والإجابة أن شاعراً من المسلمين نظم قصيدة حول الأحداث رافضاً تولي اليهود المناصب السيادية، وداعياً الأمير لإنهاء هذه الأوضاع الشائنة، بطريقة تلك العصور، بالقوة ومصادرة الاموال.

ذلك هو "أبو إسحق الإلبيري" الذي ناب عن الضمير الجمعي للمسلمين ورفع قصيدته لباديس، كاشفاً له سلبية ما يدور في إمارته، محرضاً إياه على اليهود.

وبينما لم يحرك باديس ساكناً رداً على القصيدة كان ما فيها من أفكار وعواطف يتفاعل في نفوس الناس والعوام وجند البربر، وإن لم يظهر ذلك في الحال، كان الغضب منتشراً في كل القطاعات ولا يحتاج أمر الثورة إلا إلى شرارة تطلق الناس من بيوتهم.

وحدثت الشرارة!

أقدم يوسف على خطوته قبل الأخيرة فتآمر مع صاحب "ألمرية": "ابن صمادح" على دخوله غرناطة.

وفي جلسة ممهدة لذلك أخذ اليهودي يعد المتآمرين من داخل غرناطة بالإقطاعات والمزايا، وسأله أحدهم: من أعطاك حق هذه الوعود؟ أهو مولانا حياً أو ميتاً؟ فرد عليه بقسوة ووبخه على سؤاله، فانطلق الرجل خارجاً إلى الناس يفضح المؤامرة ويقول للناس وللبربر: هذا باديس قد غدره اليهودي؛ وهذا ابن صمادح داخل إلى البلد!

لم يبق عذر لأحد في القعود، وانطلق الناس خارجين ومسلحين يتناشدون قصيدة "أبي إسحق"، وتجمعوا حول قصر الأمير بعد أن سرت بينهم إشاعة قتل

باديس. وحاول يوسف تدارك الأمر فأخرج لهم الأمير وهو سكران، قائلاً: هذا أميركم حي. لكن ذلك لم ينجح، واقتحم الناس القصر واستخرجوا الوزير مسوداً وجهه بالفحم وقتلوه. ثم أحالوا السيوف على اليهود وقتلوهم بالمئات في ذلك اليوم.

ولا شك الآن أن القارئ متشوق للاطلاع على هذه القصيدة. وهذه هي دون تعليق؛ فهي لفرط بساطتها لا تحتاج إلى شرح

ألا قل لصنهاجة أجمعين — بدور الندي وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلة — تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا — ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهود به وانتخوا — وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى — فحان الهلاك وما يشعرون
فكم مسلم فاضل قانت — لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم — ولكن منا يقوم المعين
فهلا اقتدى فيهم بالألى — من القادة الخيرة المتقين
وأنزلهم حيث يستاهلون — وردهم أسفل السافلين
وطافوا لدينا بأخراجهم — عليهم صغار وذل وهون
وقموا المزابل عن خرقة — ملونة لدثار الدفين
ولم يستخفوا بأعلامنا — ولم يستطيلوا على الصالحين
ولا جالسوهم وهم هجنة — ولا واكبوهم مع الأقربين
أباديس أنت امرؤ حاذق — تصيب بظنك نفس اليقين

فكيف اختفت عنك أعيانهم … وفي الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا … وهم بغضوك إلى العالمين
وكيف يتم لك المرتقى … إذا كنت تبني وهم يهدمون
وكيف استنمت إلى فاسق … وقارنته وهو بيس القرين
وقد أنزل الله في وحيه … يحذر عن صحبة الفاسقين
فلا تتخذ منهم خادما … وذرهم إلى لعنة اللاعنين
فقد ضجت الأرض من فسقهم … وكادت تميد بنا اجمعين
تأمل بعينيك أقطارها … تجدهم كلابا بها خاسئين
وكيف انفردت بتقريبهم … وهم في البلاد من المبعدين
على أنك الملك المرتضى … سليل الملوك من الماجدين
وأن لك البق بين الورى … كما أنت من جلة السابقين
وإني احتللت بغرناطة … فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها … فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها … وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبسون رفيع الكسا … وأنتم لأوضعها لابسون
وهم أمناكم على سركم … وكيف يكون خؤون أمين
ويأكل غيرهم درهما … فيقصى ويدنون إذ يأكلون
وقد ناهضوكم إلى ربكم … فما تمنعون ولا تنكرون
وقد لابسوكم بأسحارهم … فما تسمعون ولا تبصرون
وهم يذبحون بأسواقها … وأنتم لأطرافها آكلون
ورخم قردهم داره … وأجرى إليها نمير العيون

فصارت حوائجنا عنده ... ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا ... فإنا إلى ربنا راجعون
ولو قلت في ماله إنه ... كمالك كنت من الصادقين
فبادر إلى ذبحه قربة ... وضح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه ... فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عراهم وخذ مالهم ... فانت أحق بما يجمعون
ولا تحسبن قتلهم غدرة ... بل الغدر في تركهم يعبثون
وقد نكثوا عهدنا عندهم ... فكيف تلام على الناكثين
وكيف تكون لهم ذمة ... ونحن خمول وهم ظاهرون
ونحن الأذلة من بينهم ... كأنا أسأنا وهم محسنون
فلا ترض فينا بأفعالهم ... فأنت رهين بما يفعلون
وراقب إلهك في حزبه ... فحزب الإله هم الغالبون

عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه ولم يستخلف أحداً بطريقة صريحة، ولم يترك في هذه المسألة نصاً جامعاً مانعاً لا ينازع فيه أحد. وهذا دليل على إرادة أن تكون مسألة الخلافة قضية الواقع المتغير، وسنة الحياة التي لا تبقي شيئاً على حاله.

فطرائق عيش الناس ونشاطهم الاقتصادي والثقافي والاجتماعي كل ذلك متغيرات وليس ثوابت، وإن ظن بعض من لا يدرون العكس لطول الألفة، أو لاستبقاء أوضاع يميلون إليها لأسباب عاطفية.

ولهذا الإدراك - والله أعلم - لم يتحرك أبو بكر رضي الله عنه ليضع للمسلمين قانوناً لاختيار ولي الأمر. ومضى من خلافته عامان تقريباً وليس للمسلمين هذا القانون الجامع المانع.

لكن ما صنعه أبو بكر لما حضرته الوفاة يجوز اعتباره جزءاً من هذا القانون، فقد جعل الشورى تدور حول شخص واحد، ثم استخلفه. ورضيت الأمة ذلك كما سبق رضاها أن تتم الشورى بين أهل الحل والعقد في سقيفة بني ساعدة..

ورغم إجراءات الفاروق عمر رضي الله عنه في تدوين الدواوين، والتي اقتبس فيها من نظم الأمم الأخرى لم يخرج إلى أرض الواقع قانون جامع مانع ينظم ولاية أمر المسلمين.

الملمح المهم والمعروف عن عمر رضي الله عنه هو منعه أهل الحل والعقد من كبار الصحابة من التفرق في الأمصار، وكأنه يستبقيهم في المدينة لهذا الأمر الذي سيأتي أوانه ولا بد!

كان الفاروق رضي الله عنه يمضي في حياته العامة مثل رجل عادي من عوام المسلمين؛ وليست عليه حراسة خاصة، وإن اتخذ بعض ولاته الحرس! وحدثت الفاجعة وطُعِن الخليفة وهو يسوي الصفوف في صلاة الفجر ست طعنات غادرة ستودي بحياته.

وقبل أن يرحل رضي الله عنه يضع في سجل إنجازاته تطويراً مهماً في طريقة اختيار الأمة لرئيسها الأعلى.

يأمر رضي الله عنه أن يجتمع من بقي من المبشرين بالجنة في أحد البيوت لاختيار واحد منهم.

والأجل المضروب لهم ثلاثة أيام لا أكثر..

وعلى باب البيت من وكلت إليه مهمة هي درس في الحزم والعزم، وهي قتل من لم يرض نتيجة الشورى إن كانوا الأقل عدداً، وقتلهم جميعاً إن انتهى الأجل ولم ينتخبوا أحداً!

وما يشد الانتباه هو اهتداء عمر رضي الله عنه لفكرة ترجيح رأي على غيره إن تساوت الأصوات بصوت من خارج دائرة الشورى.

فقد أدخل مع أهل الشورى وهم ستة ابنه عبد الله بن عمر، ليكون له صوت ترجيح لا غير. وهذا ما يطلق عليه حديثاً: النصف زائد واحد.

وأهل الشورى المجتمعون هم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبد الله، وعبد الرحمن بن عوف. رضي الله عنهم جميعاً.

وأخرج ابن عوف نفسه ليقوم هو بالتعرف على رغبة الأمة ممثلة في قيادتها التي لم تحضر المجلس. واستطلع الآراء فوجدها تنحصر في عثمان وعلي رضي الله عنهما.

وفي الخطوة قبل الأخيرة سأل علياً: لو لم يكن لك هذا الأمر فمن ترضى؟ فأجاب: عثمان. وسأل عثمان نفس السؤال فأجاب: علي.

وكانت الخطوة الأخيرة في المسجد، ففي صبيحة اليوم الرابع اجتمعوا هناك وسأل عبد الرحمن بن عوف علياً: "عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وسيرة الخليفتين من بعده" فقال علي: أرجو أن أعمل بمبلغ علمي وطاقتي.

فأعاد الجملة عينها على عثمان فقال: نعم سأعمل. فبايعه عبد الرحمن بن عوف أولاً ثم بقية المجتمعين وتقدم علي فبايعه أيضًا، وأمام الملأ.

رضي الله عنهم أجمعين

أيّ شيء أفضل للفقيه، أن يؤلف الكتب في فروع العلم، ويتخرج من بين يديه تلامذة يفعلون الأمر عينه، أو يقدم للحياة العلم في صورة مريدين يربيهم على الأخلاق الحميدة والعقيدة الصحيحة؟

عرف تاريخنا الإسلامي كلتا الطريقتين، ففي الحواضر والمدن ينشط العلماء وتلاميذهم، والمجتمع من حولهم ينظر لهم نظرة التقدير والهيبة، ولا ينالهم شر في الغالب من تجمعات العوام والبسطاء.

وهناك قلة من أهل العلم اختطوا لأنفسهم الخطة الأخرى، فذهبوا للمناطق الجاهلة بالإسلام، المنحرفة عن العقيدة، الواقعة في المعاصي والظلم، وعانوا المشقات التي عاناها الأنبياء مع أقوامهم، حتى يظهر الدين، أو يلحقوا بركب عظيم من الشهداء الذين طلبوا ما عند الله.

من هؤلاء القلة رجل لا يعرفه الكثيرون منا، وهو الإمام المجاهد الزاهد (عبد الله بن ياسين) المولود بالسوس في المغرب، والمتوفى 451 هجرية.

ولم يكن هذا الرجل يدرك أن الله عز وجل سيجدد به الدين، فقد كان منصرفاً لطلب العلم على يد فقيه يدعى (وجاج بن زلو) الذي كان بدوره تلميذاً للفقيه الشهير (أبي عمران الفاسي).

وكل هؤلاء كان تعاطيهم مع العلم على الطريقة التقليدية، وهي تقوم على التلقي ثم التدريس في الحواضر.

وعندما ارتحل ابن ياسين للأندلس فمن أجل المزيد من العلم.

لكن رحلته التي سيتغير عندها تاريخ عدة دول ومناطق شاسعة من بلاد

المغرب بالإضافة للأندلس ستحدث على غير انتظار، إلى المنطقة التي تضمها الآن دولة (موريتانيا).

فما ظروف هذه الرحلة، وما غايتها؟

أقام في هذه المنطقة فرعان عظيمان من فروع قبيلة (صنهاجة) هما: (كدالة) و (لمتونة).

وكل من الفرعين عانى كما عانت القبائل الأخرى من البعد عن الدين الصحيح، وراوح الناس هناك بين المعاصي المشينة والبدع الخطيرة. وفي بعض الأحيان وقع البعض في الكفر الصريح.

ترأس كدالة رجل ذو ضمير حي هو (يحيى بن إبراهيم الكدالي) وفي رحلته لأداء فريضة الحج، تنقل بين الفقهاء يشكو لهم أحوال قومه الدينية المتردية، ويسألهم أن يعينوه بمن يعلم كدالة الدين الصحيح.

وفي الأخير يقبل رجلنا العظيم (عبد الله بن ياسين) المهمة.

ورغم أنه استُقبِل في غير عداوة أول الأمر، لكن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكرات الشنيعة التي ألفها القوم صنعت له العداوات. ومكر به أصحاب المصالح في بقاء الأحوال فأحرقوا داره، واضطروه للخروج من القبيلة.

غيّر الفقيه من أسلوبه فابتعد عند مصب نهر السنغال، واعتزل هناك في خلوة متواضعة سميت في التاريخ بالرباط. وهناك عكف على العبادة، وشاع بين الناس أنه لا يأتيه إلا المريد، والراغب في العبادة على أساس من العقيدة الصحيحة والزهد في الدنيا.

ولحق به بضعة نفر على رأسهم يحيى الكدالي ويحيى بن عمر اللمتوني وأخوه أبو بكر. وتسامع من سبق رفضهم لدعوته بالرباط فبدأت وفودهم تتلاحق للانضمام إليه.

لكن النظام في الرباط كان في قمته، حتى إن ابن ياسين كان يعاقب من لا يخشع في الصلاة.

بلغ الأتباع ألفاً ، وهم - كما قال الفقيه - لن يُغلَبوا من قلة!

ثم قام يحيى بن عمر بدعوة لمتونة، واستجاب له بضعة آلاف سارعوا إلى رباط عبد الله بن ياسين.

بدأ هذا التجمع الجهاد في سبيل الله، فأدب البربر وألزمهم الدين القويم، ثم التفت للمناطق الأخرى واتسعت دولتهم في سجلماسة وفي بلاد السوس وفي مناطق الزنوج التي تؤلف الآن عدة دول.

ومن أهم أنشطة المرابطين هجومهم على قبائل يجمعها اسم (برغواطة)، وكان خروجهم على الدين ذا مستوى خطير.

استُشهد ابن ياسين في إحدى المعارك، ومضى إلى ربه وقد أسس دولة ونظاماً إصلاحياً مستقراً تسامع به العالم الإسلامي كله.

وتقلب على زعامة المرابطين قادة من لمتونة، ومن أشهرهم (أبو بكر بن عمر) الذي لم يتخل عن الجهاد، وكان يخرج إليه بنفسه.

وعندما عزم على التوغل في بلاد الزنوج استخلف ابن عمه (يوسف بن

تاشفين)؛ ذلك أنها مهمة ثقيلة، وهي مهمة تدور على أرض ما يزيد على عشر دول حالية.

واستغرقت مهمته اثني عشر عاماً ، تعود الناس فيها على حكم يوسف.

وعندما عاد أبو بكر أخيراً ، ورأى ما آل إليه أمر الدولة من قوة ومنعة وهيبة في ظل القيادة الفعلية لابن عمه توافق الرجلان على استدامة هذا الوضع، وعاد أبو بكر لاستكمال جهاده في بلاد الزنوج، على أن يمده يوسف بالمدد اللازم.

ولقي هذا القائد ما رجاه من الشهادة.

ورغم أن دولة المرابطين صارت أقوى دول الإسلام في القرن الخامس لكن يوسف ابن تاشفين لم يتلقب إلا بلقب (أمير المسلمين)؛ احتراماً للخليفة العباسي في بغداد. حتى بعد ضمه للأندلس.

وتلك قصة أخرى.

قدمنا في الحلقة الأولى ما بيّن أن حركة المرابطين هي حركة دينية إصلاحية، قام على أمرها رجال زهدوا في الدنيا، وعلى أكتافهم عاد الناس إلى دين الله اعتقاداً صحيحاً وسلوكاً قويما، وأخذوا الدين والدنيا بقوة، فتسامع الناس بأمرهم في كل أنحاء بلاد المسلمين، وأثنى عليهم فقهاء المشرق، ولم تحدث بينهم وبين دار الخلافة منافسة على دنيا، وقد كانت الخلافة في حال ضعف جعل كل حاكم في دولة مستقلاً بها على الحقيقة.

كان موقف المسلمين في الأندلس غريباً مشوهاً ، فقد توزعت هذه البلاد العظيمة بين ما يقارب ثلاثين حاكماً ، كلهم على وجلٍ من أخيه، ويطمعون في ملك بعضهم البعض، لكنهم يدفعون الجزية للنصارى، ولا يطرأ على أذهانهم فكرة التوحد، بعد أن ضاعت هذه الوحدة التي عمل عليها خليفة عظيم وحاجب عظيم.

لقد سطا على أمجاد الخلافة أمراء يتمتعون بثمرات عهود القوة الثقافية والحضارية، لكن افتقدوا القوة الروحية والنفسية التي تنشأ من التدين العملي الصحيح. وطمعت مملكة قشتالة في استرداد الجزيرة، وكانت على مقربة من ذلك لولا تحول الأحداث.

ظل أمراء الأندلس على أحوالهم المزرية دون تحرك في الاتجاه الصحيح، بينما مدن وحصون تساقط في يد النصارى.

ومما يشهد على أكبر إهانة أن إمارة من الإمارات سقطت في يد قاطع طريق إسباني، يعرف تاريخياً باسم "السيد القنبيطور".

أما كبرى القوارع فكان سقوط طُلَيطِلة.

عرف الأمراء أخيراً أن دفع الجزية والمهادنة لن يجدي في دفع الخطر؛ فعقدوا اجتماعاً للتشاور، واستقر الرأي على إرسال استغاثة لسيد الصحراء أمير المسلمين والمرابطين يوسف بن تاشفين، حاكم المغرب والجزائر وموريتانيا والنيجر وبلاد الزنوج التي تضم الآن عدة دول حديثة.

عبر المرابطون إلى الأندلس، ورغم وحدة هدفهم مع القوات الأندلسية، لكنهم ميزوا القوات المرابطية في خطة المواجهة. ووقعت معركة عظيمة تدعى "الزلاقة" بين الجيش المسلم بقسميه وبين قوات ألفونسو السادس الذي تزايد عددها بانضمام المتعصبين من أوربا. وأي شخص يمكنه الحكم على القادم تأسيساً على نتيجة المعركة.

بادرت قوات الفونسو بالهجوم الذي أجبر الأندلسيين على التراجع. وهنا هاجمت القوات المرابطية المتميزة من أول المعركة معسكر ألفونسو مجبرة إياه على التراجع، ولم يغنه ذلك شيئاً، واستفحل القتل في ستين ألفاً من النصارى، فلم ينج منهم سوى خمسمائة فروا بمليكهم جريحاً!

من روائع تاريخنا أن المرابطين عادوا للمغرب بعد أداء مهمتهم التي أنقذت الجزيرة، ولكنهم كانوا قد عصروا أعينهم على مثالب الأمراء، وقد عاينوا منها الكثير في المعركة وقبلها وبعدها.

وبعودة المرابطين عاد أمراء الأندلس لسابق عهدهم، فرقة وتحالفاً مع النصارى وكيداً لبعضهم البعض.

واضطر يوسف بن تاشفين للقدوم مرة ثانية بعد عودة النصارى لسابق نشاطهم التهديدي، وحاصر حصناً مهماً لهم يدعى "لييط" وقضى على اكثرحاميته، وإن استعصت أسواره.

حدث تطور نوعي في مسار الأحداث بعد عودة المرابطين لديارهم، إذ جاءتهم الرسائل هذه المرة من فقهاء الأندلس، تدعوهم لإسقاط حكامهم، بكل ما يمثلونه من تدهور!

ومن الروائع أيضاً أن يوسف بن تاشفين كاتب بغداد عاصمة الخلافة يطلب تعييناً رسمياً منها على ما تحت يده من بلاد وعلى الأندلس.

واستجابت الخلافة له ووصله ما يقوي حجته على جميع ملوك الطوائف.

جاز المرابطون للأندلس هذه المرة وهدفهم توحيد الجزيرة مع بلادهم القوية، ولم يرضخ الملوك إلا للقوة، وقضوا ما بقي لهم من أنفاس أسرى لدى المرابطين، غير مأسوف عليهم من أحد؛ فقد أدركت كل قطاعات المسلمين وعامتهم وفقهاؤهم في المشرق والمغرب أن هؤلاء الحمقى هم سبب معاناة الإسلام لقضية وجود.

من الأخطاء في حياة أي دولة توسيد رجل في مكان لا يلائمه، أو في منصب لم يمتلك أدواته، وإن كان النظام في هذه الدولة غير متداعٍ تدارك أولو الأمر ما جرى من خلل في الوقت المناسب، وإن كانت الأخرى تداعى من البنيان ما تداعى.

من الأمثلة التاريخية الثابتة تولي عبد الله بن سعد على مصر خلفاً لعمرو بن العاص زمن الخليفة الراشد عثان بن عفان رضي الله عنه، فيزيد الخراج على الناس، غير عابئ بشكاياتهم، وليته استطاع حمايتهم من هجوم العدو، فمن الثابت أيضاً أنه عجز عن صد هجوم بيزنطي على البلاد، فاستنجد الناس بالخليفة أن يعيد ابن العاص ليقاتل الروم.

ومضى من الزمان ما مضى، وانقضى عهد الراشدين، وقامت دولة الأمويين، ومن المزايا الإدارية لهذه الدولة- على الأقل إبان قوتها- تولية عمال على الأمصار أدركوا الواقع المتغير في حياة الأمة، وتمكنوا من ضبط أمور ولاياتهم سياسياً وإدارياً. ومن ثم فإن ما تحت أيديهم من بلاد تهيأ للمساهمة في النشاط الأهم للأمة، وهو نشر رسالة الإسلام في الأمم الأخرى.

من رجال الدول الاقوياء في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه " زياد بن أبيه" والذي تولى الكوفة والبصرة فضبط الأمن وساس الناس بسياسة متوازنة أسهمت في استقرار الأمور لمعاوية رضي الله عنه، على رغم طول حكمه نسبياً.

ومن الذين اعترفوا لهذا الوالي بالكفاءة خليفة بني العباس القوي "أبو جعفر

المنصور"، وهو رجل يعرف أقدار الرجال وإن كانوا أعداءه! ومن مشهور حديثه: الخلفاء ثلاثة، معاوية وكفاه زياد، وعبد الملك بن مروان وكفاه الحجاج، وأنا ولا كافي لي!

فماذا امتلك هذا الرجل وأعانه على النجاح في كل مهمة أوكلت إليه؟

بعيداً عن الحديث غير المجدي عن نسبه نرى أنه تدرب على الإدارة في فترة مبكرة من الحكم الإسلامي، فوثق فيه أبو موسى الأشعري والي البصرة من قِبَل عمر رضي الله عنه، وجعله نائباً عنه حين استقدمه الخليفة للتحقيق معه.

ومرة ثانية يستخلفه والي البصرة عبد الله بن عامر حين خرج للغزو والجهاد.

وللمرة الثالثة يقوم بمهمة نوعية خطيرة زمن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ذلك الخليفة الذي نُكِب في رجاله، وخذلوه أحوج ما يكون إلى نصرتهم!

ولاه علي رضي الله عنه شئون المال والخراج مساعداً لعبد الله بن عباس، وذلك خلال أزمة خطيرة هددت بتفلّت كرمان وفارس من قبضة الخلافة؛ حيث امتنع أهلوهما عن دفع الخراج لعلي، وتحركوا بالثورة عليه. واستطاع هذا الرجل الموهوب في غضون عام أن يبطل ذلك التدبير، وبنى قلعة مهمة بمدينة "إصطخر" وجمع أموال الخراج فيها، وعُرفت باسم قلعة زياد.

نحن أمام رجل فذ تعمقت خبرته الإدارية في خلافة ثلاثة من الراشدين، وقد عصر عينه على الواقع الذي عاشته الأمة، فأدرك معنى أن يكون المرء ناجحاً في كل الظروف.

ومما يلفت الأنظار وفاؤه، في زمن لم يراع أهل السياسة خلق الوفاء كثيراً! فقد جاءته الرسائل من الشام وقت الفتنة تطلب منه التخلي عن علي رضي الله عنه في إغراء صريح، لكنه رفض ذلك وأطلع الخليفة على التفاصيل.

ودار الزمان دورته فقُتِل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وبايع فريق من العراقيين الحسن بن علي رضي الله عنه بالخلافة، لكن هذا الخليفة الحكيم رفض أن تُراق دماء المسلمين على الملك؛ فتنازل عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه.

وذهبت الفتنة واجتمعت الأمة على معاوية رضي الله عنه.

لكن زياداً رفض كل هذا، وأصر على رفض ما حدث حتى بعد أن استلحقه معاوية بنسبه، وظل رافضاً رغم وقوع أولاده في أسر صاحب البصرة، وتهديده إياه بقتلهم!

وخشي معاوية من خطورة اعتصامه بقلعة "إصطخر" فأرسل الجيوش لاستخراجه من هناك دون جدوى. فلم يجد بداً من إرسال أحد دهاة العرب إليه، وهو"المغيرة بن شعبة" ليقنعه أن المصلحة فيما وافقت عليه الأمة.

وأخيراً قدم هذا الرجل الفريد على معاوية في عزّة. وولاه البصرة لسابق معرفته بأهلها وظروفها.

وهو من الذين حصلوا على مناصبهم عن اقتدار وعزة نفس.

عرضنا في الجزء الأول عن شخصية زياد بن أبيه ما استوقفنا من هذا الرجل وأجبرنا على احترامه وتقديره. ولسنا أول من احترمه وقدره، بل إن من الصحابة من رأى فيه مواهب تؤهله للإمامة العظمى!

قدم زياد على الفاروق عمر وهو في السادسة عشرة من عمره، مبعوثاً من سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ومعه أخماس غنائم فتح جلولاء، ويستئذن في الانسياح بأرض فارس. فدخل الفتى قلب عمر وعقله، وأراد أن يزيد في اختباره، فسأله إن كان يقدر على الحديث مع الناس فيما جاء به.

ويتحدث الفتى في المسجد وهو فصيح ثابت؛ فينبهر عمرو بن العاص به ويقول: لو كان هذا الفتى من قريش لساق العرب بعصاه! وهنا يميل أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه على أذن عمرو ويقول إنه ولدي!

وفي هذه السطور سنحاول أن نلخص للقراء صنائعه بعدما تولى أمر البصرة وما وراءها من خراسان وسجستان، ثم انضم إلى كل ذلك البحرين وعمان وثغر الأبلة الذي كان يسمى الهند.

قبل أن يتولى زياد البصرة كانت أحوالها قد فسدت فساداً كماً وكيفاً، فقد عبث الخوارج في نواحيها، وما عاد الناس يشعرون بالأمان على أنفسهم وحرمهم، بعدما شاع قطع الطريق. وظهر في أهل البصرة فسق وفجور بعدما كثرت في أيديهم الأموال التي أغرقت الجماعة البدوية فعرفوا أوضار الحضارة.

ولم تكن القبائل مؤهلة لمواجهة كل ذلك الخراب في هذاالجزء المهم من

الدولة؛ ذلك أن كل فئة انشغلت بتعصبها القبلي ضد هذه القبيلة أو تلك.

فيمكن أن يقال إن البصرة كانت تعيش حياة فيها جاهلية! وفشل الولاة السابقون على زياد في الإصلاح.

رأى هذا الرجل الناجح أنه يحتاج إلى إظهار الحسم منذ البداية، فوضح في خطبته الأولى للناس سياسته التي تجعل الأمن مسئولية جميع الناس، ليس الوالي وحده. وهدد بأقوى الألفاظ أهل الفساد، ومن يتجرأ على الأخلاق فقال: "ما هذه المواخير المنصوبة في النهار المبصر والعدد غير قليل؟! حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض".

ثم أعلن قراراً لم يُسبَق إليه فيما نعلم، وهو قرار حظر التجول ليلاً! "وإياي ودلج الليل، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه". وقد حدث أن أتاه جنده بأعرابي تأخر في البادية إلى الليل فأمر بقتله، فارتعدت فرائص اللصوص وغيرهم.

وعن تضامن جميع الناس ومسئوليتهم عما يحدث من إفساد في الأرض ومن نشاط الخوارج واعتدائهم على الناس وسفك دمائهم قال: "وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم... أو تستقيم لي قناتكم".

والتاريخ يشهد أن القناة استقامت بعد طول اعوجاج.

أما في مواجهة ما عادت إليه القبائل من تعصب جاهلي فقد هدد قائلاً: "وإياي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه".

ولكنه لم يركن إلى التهديد وحده، بل جعل الجنود المقاتلين أخماساً ، ومن قبائل مختلفة، وعلى كل خمس رئيس تعينه الدولة. وكانت السياسة قبله أن يقود كل قبيلة رئيسها.

وخلط كلامه ببعض البشارات فقال: "واعلموا أني مهما قصرت فإني لا أقصر عن ثلاث؛ لست محتجباً عن صاحب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل، ولا حابساً رزقاً أو عطاءاً عن إبانه، ولا مجمراً لكم بعثاً.(أي لا تطول مدة غزوكم للعدو بما يرهقكم). أيها الناس عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا".

لم يكن زياد قاسياً إلا في حالات قليلة، ألجئ إليها لإرهاب العصاة فحسب. ودعك من كثير من الأقوال المكذوبة عليه من الشيعة وأعداء الدولة الأموية.

لقد نجح هذا الإداري الداهية فيما فشل فيه غيره، وكسر شوكة الخوارج بعدما تكفلت بهم قبائلهم وعائلاتهم. وطارت نفوس أهل الفساد من هيبته، وأصبح زياد يفتخر: " لو فُقِد حبل بيني وبين خراسان لعرفت من أخذه".

انصرف الناس بعد ذلك في أداء المهمة الجليلة للأمة من فتوح لنشر دين الله، وكذلك من تعمير للأرض.

ومن قرارات زياد أن يعطى الرجل قطعة من الأرض، ويُترك سنتين لتعميرها، وإلا استردتها الدولة. وعمرت البلاد في عهده عمراناً مشهوداً خاصة بعد قراره بأن تجري الدولة على سنة الساسانيين القديمة، فلا تأخذ الدولة خراج الأرض سنة كل عشر سنين.

من أحوال هذا الوالي التي تأثر فيها بالفاروق عمر نزوله للأسواق ومحاسبة المطففين ومخسري الميزان حساباً شديداً. كذلك زهده في الدنيا، فلم تعرف له شبهة واحدة تجاه أموال الدولة على كثرتها بين يديه.

لكن من بدائعه التي لم يسبق إليها اهتمامه بالنظافة العامة، فمن ألقى من الناس طيناً أو قذراً أمام بيته ألزمه برده إلى فنائه، ثم رتب عبيداً لنظافة الشوارع. وكذلك فرش المساجد بالحصباء.

لنجاح زياد الذي وصلت أخباره إلى العاصمة وتحدث به الجميع ضم إليه معاوية أمر الكوفة بعد وفاة واليها صديق زياد القديم المغيرة بن شعبة.

وفي هذه المنطقة كان الخطر على الدولة من فئة الشيعة الذين كانوا يتنادون بالطعن على معاوية في أواخر عهد المغيرة. ولا يمكن المزايدة على وفاء زياد لعلي بن أبي طالب وولده الحسن رضي الله عنهما. لكنه وقد انقضى الأمر بموت علي وتنازل الحسن وإجماع الأمة على معاوية فلا مجال لإثارة الفتن باسم التشيع؛ فقبض على زعماء الفتنة وأرسلهم لمعاوية في دمشق، فقتل منهم عدداً.

عامل زياد بن أبيه كل حالاته السياسية والإدارية بما يلائمها شدةً أو ليناً. وقبل وفاته ينصح لمعاوية ألا يستعجل في أخذ البيعة بالخلافة لابنه يزيد، تخوفاً من هذه الخطوة الخطيرة، لعله لا ينجزها.

ولم يتم ذلك إلا بعد وفاة زياد رحمه الله. ولو استخلف زياداً- وهو أخوه من أبيه- لكان أرشد للأمة.

أعتمد في ميزاني للرجال أمرين لم أبتدعهما، وعلماء السياسة الشرعية سبقوا بهما، فحين تحدثوا عن وظيفة خليفة المسلمين ذكروا الأمرين، فقالوا إن مهمة الخليفة حفظ الدين وسياسة الدنيا.

ومتابعة لهذا فإن كل من يتولى أمراً يكون مسئولاً فيه عن العباد والبلاد- ينبغي أن يتحقق بوجوده قدْر من حماية الدين؛ سلباً بالدفاع عنه إن هوجم، أو إيجاباً بنشره في أمم وأقوام لم يعرفوه.

وقد تعاظم الأمر في نفسي حتى إني أقيس بهذين المقياسين الرجل في أسرته، باعتباره ولي أمر زوجه وأولاده.

وبين أمير المؤمنين والرجل في بيته أطياف عديد الحصى، من الأمراء والوزراء والولاة وقواد الجيوش، والموظفين الماليين والإداريين... كل واحد من هؤلاء مسئول بطريقة ما عن دين من يتولاهم عقيدة وشريعة وسلوكاً، ومسئول عن إدارة شئون حياتهم على طريقة من الطرق بما يحفظ الجماعة صغرت أو كبرت، ويصون وحدتها وتماسكها.

ومنذ أن انقضى عهد الخلفاء الراشدين فأمور الأمة متداولة بين الأقوياء أو من ظنوا ذلك، اعتماداً على العصبة أو القبيلة، أو العرق أو المذهب، وأحياناً اعتماداً على الظروف الاقتصادية والأحوال والاجتماعية.

وسمّى العلماء من يتولى أمراً بقوته الإمام المتغلب، ورضوا بولايته على الشرطيْن المطلوبيْن في ولي الأمر؛ حفظ الدين وسياسة الدنيا.

كم من والٍ تحكم في عباد الله ظهرت منه هنات أو أخطاء أو خطايا ولم

يشفع له عند علماء الأمة وعقلائها إلا جهاده الكفار، وتوسع رقعة الإسلام في عهده.

وكم من أمير أو متغلب استولى على ما في يد غيره من أمراء ومتغلبين ورضي الناس بخيره وشره، ذلك أن خيره يتضمن أماناً على دينهم وحرمهم، واستقراراً كل جماعة بشرية تطلبه.

من يبحث عما يخص شخصية صاحب المقال من إضاءات فهو واجد الكثير، هو وزير من وزراء الدولة الفاطمية بمصر، وهو شاعر مجيد مكثر، وهو يمثل مدة زمنية رضي الناس فيها القدر المتاح من الأمن، بعد سنوات من الفوضى. وأحبابي من الغيورين على عقيدة المسلمين النقية ستذهب أبصارهم قبل كل شيء إلى تشيعه، والامر حق فالرجل يتبع الإمامية وشعره مكتنز بالترويج لها.

قد لفتني في "طلائع بن رزّيك" أمران، أحدهما أمر أحبه، والآخر لم أتوقعه!

أما الأول فشهامته ومروءته، فقد وصل لمنصب الوزير في الدولة الفاطمية في أحوال عجيبة، وقبل أن أحكيها يجب أن يعلم القارئ أن منصب الوزير في هذه الدولة وكذلك منصب الحاجب في دولة بني أمية في الأندلس يساوي منصب رئيس وزراء منتخب في عصرنا الحالي. وحين يكون الخليفة ضعيفاً أو مغيباً-وكثيراً ما حدث هذا- فإن صاحب الوزارة هو صاحب الدولة على الحقيقة.

والآن كيف استوزر "طلائع بن رزّيك"؟

قبل وزارته كان حاكماً على "منية بن خصيب"، والأصل أن يأمره وينهاه "عباس الصنهاجي" وزير الفاطميين، وقد قام عباس هذا وولده نصر بقتل الخليفة الظافر غيلة وغدراً، في إطار صراع وفتن ندر أن نجت منها مملكة في العصر الوسيط. وظن القاتلان أن الأمر سيمر دون محاسبة، بعد أن أقام عباس "الفائز" ولد الخليفة المغدور، وكان طفلاً صغيراً!

لكن نساء القصر الفاطمي أرسلن جدائل شعورهن إلى حاكم الصعيد "طلائع بن رزيك" يستغثن به. وقدم هذا الحاكم الذي بدأ سلم صعوده في المناصب من أوله، وبقدومه مع جيشه فر عباس وولده واحتملا خزائن القصر معهما إلى الشام حيث ظفر بهما الفرنجة من عسقلان، فقتلوا عباساً وحازوا الأموال وردوا نصراً إلى القاهرة حيث صُلِب.

ثم تولى طلائع الوزارة للفائز ثم العاضد تسع سنين كانت فترة ازدهار أدبي وثقافي كبير.

وأما الأمر الذي لم أتوقعه من هذا الرجل فهو قيامه بجهاد الصليبيين في الشام؛ فالمعروف تاريخياً أن اهتمام الشيعة بالإمامة وبردها إلى أئمتهم هو خيارهم الأول، وأن دولهم التي نشأت في بعض بلاد المسلمين شرقاً وغرباً كانت شوكة في خاصرة الخلافة العباسية السنية وما تابعها من دول!

فلا يتعجب قارئ التاريخ لضياع بلاد الشام وعبث الصليبيين بمدنها.

نعم لقد تفرغ الفاطميون الشيعة بمصر لغير جهاد الفرنجة؛ فاجتاح هؤلاء طرابلس وصيدا وصور وعكا وغيرها. وأخيراً سقطت عسقلان آخر معاقل

الفاطميين في الشام.

وعلى ما تقدم كانت هذه الدولة في حاجة لرجل قوي يلم شعثها ويحفظ ما بقي منها. ورغم ذلك يظل عجيباً أن يسخر "طلائع بن رزيك" موارد مصر في جهاد متواصل للصليبيين، وإن لم يكن في الاتجاه الأصوب.

ومنذ 550 هجرية وأسطوله يهاجم سواحل الشام في صور وبيروت وعكا فيحرز الانتصارات ويعود بالغنائم الوفيرة. ولم يكتف بهجوم الأسطول بل سيّر قوات برية إلى غزة وعسقلان. لكنه لما وصل إلى بيت المقدس عرف أن مصر وحدها لا يمكنها استردادها.

فيرسل مبعوثه"أسامة بن منقذ" في سفارة إلى نور الدين محمود لتوحيد جهودهما من أجل الاسترداد.

وغير السفارة فله شعر مشهور يستصرخ به الشام للتعاون ضد الصليبيين.

من يدري! لو نجح هذا الأمر لتغير التاريخ، وربما ما سمعنا أبداً عن وجود صلاح الدين الأيوبي!

وتموت هذه المحاولات بموت "طلائع بن رزيك" الذي دبرت له نساء القصر مؤامرة انتهت بقتله. وقبل موته يعلن ندمه على عدم تسخير كل الجهود المالية لاستئصال الصليبيين من بيت المقدس أولاً، عوضاً عن غاراته على بلبيس ومدن السواحل الشامية.

قدمنا في مقال سابق أن العبرة في معرفة الرجال وإعطاءهم درجتهم الصحيحة إنما تكون بأمرين، حفظ الدين وسياسة الدنيا. وعلى هذا فالرجال أطياف ما بين المتفوقين عن جدارة، والراسبين دون ظلم أو تجنٍ.

وفي الحلقات الماضية تحدثنا على رجال ناجحين، أفادت من وجودهم الأمة، على تفاوت بينهم. واليوم نسلط الضوء على مثال هو النقيض لكل من تعرضنا لهم آنفاً.

شخصية اليوم "الحاكم بأمر الله الفاطمي" وعهده جمع إلى غرابته الشديدة وكثرة مضحكاته ومبكياته خطراً داهماً على دين الإسلام.

لا أقول ذلك على طريقة من يرى مخالفة ما فيسرع متعجلاً ويحكم بخراب الدنيا والدين. لكنا نقول بعد تأمل في قرارات هذا الرجل -وبعيداً عن السخائف التي تحفل بها سيرته-

إن الله ألقى ستره على رعية هذا الرجل، وحفظ دين الإسلام من الضياع التام بعدما ما استهدفه أفاقون تحت حمايته وبتواطؤ منه.

تولى الحاكم بعد اثنين من حكام الفاطميين الأقوياء، أبيه العزيز وجده المعز. وقد قدم هؤلاء القوم على مصر مؤملين أن ينافسوا الخلافة العباسية السنية منافسة جدية، بعدما عجزوا عن ذلك في المغرب. وكات طليعتهم جوهر الصقلي الذي أمّن المصريين على مذهبهم السني، واعداً لهم أنه لن يقهرهم على التشيع، وهو مذهب الفاطميين.

وقد تولى الخلافة صغيراً لم يبلغ الثانية عشرة، وفي الدولة رجلان قويان كل

منهما يمثل قطاعاً مؤثراً في النظام الفاطمي. وهما "أبو الفتوح برجوان" الوصي قائد الجيوش التركية، و"الحسن بن عمار" زعيم قبائل "كتامة". وهم عصب الدولة الذين طالبوا الحاكم بتولية زعيمهم الوزارة. وتحقق لهم ما أرادوا، لكن ابن عمار لم يهنأ بالوزارة لأن برجوان الوصي لم يرض به؛ وحرض الترك عليه وعلى الكتاميين، واستطاع الانتصار عليه وطرده، ثم انفرد بالحكم الفعلي، مانعاً الحاكم من الاتصال برجال الدولة. وقد فعل هذا بالأندلس ونجح فيه نجاحاً باهراً "المنصور بن أبي عامر" حاجب الخليفة المؤيد "هشام بن الحكم".

لكن هذا الصبي كان له تصرف دموي سيبدأ به ولن ينتهي؛ فاستدرج برجوان إلى القصر بحجة ما، ثم خرج عليه بعض غلمان الحاكم وقتلوه.

أول قرارات الحاكم الغريبة إجباره الناس على العمل ليلاً وغلق حوانيتهم نهاراً! وقد تندر عليه المصريون كثيراً بسبب هذا وأمور أخرى من العجائب.

وقتل عدداً من وزرائه ونكل ببعضهم، أحسنوا أو أساءوا! ومن هؤلاء وزيره النصراني "ابن عبدون"، وقد أمره بهدم كنيسة القيامة، وبعد إنجازه ما طُلِب منه قتله.

ولم يكن هذا إلا بعض ما نال أهل الذمة في عهده بعد نعيم عاشوا فيه إبان حكم أبيه وجده، فقد اضهدهم اضطهاداً كبيراً معنوياً ومادياً، ولما تسارعوا للدخول في الإسلام خوفاً منه عاد وسمح لهم بالارتداد ثانية.

لم يكن اضطهاده لهم ناشئاً من حماسه للإسلام، وإنما من اضطراب تفكيره، وتسويل نفسه له أنه فوق البشر، وله أن يفعل ما يشاء. وسنرى تفاقم هذا

الأمر معه بعد قليل.

ثم انقلب على المصريين السنة، وغير شعائرهم التعبدية على وفق الشعائر الشيعية، مخالفاً عهد "جوهر الصقلي" لهم.

ثم أمر بنقش ألفاظ سب الصحابة -رضي الله عنهم- على المساجد والشوارع والاسواق والدروب. وحين همس له أحدهم بأن السيدة عائشة -رضي الله عنها- كانت تحب طعاماً ما يحبه المصريون منعهم من أكله!!

ومن غريبه تجنيده لنساء عجائز ورجال عديدين ليكونوا عينه على الناس، في ظاهر الأمر لبستقصي احوال النساء، ومن تخرج من بيتها، ومن المتخذة عشاقاً، ومن تقف على سطح بيتها. وبعد تجمع المعلومات لديه يعاقب بالإغراق، ويتظاهر أمام رجال دولته أن لا يخفى عليه شيء.

وعلى كل هذا فإنه لا شيء تجاه ما سيقبل من أمور، لو سارت وفق تدرجها لضاع دين الإسلام من هذه المملكة التي حكمت مع مصر الشام والحجاز وبعض العراق وشطراً من المغرب.

فقد قدم بعض معتنقي العقيدة الشيعية الفاطمية من فارس، ودعوا بدعوة عجيبة، وهي تأليه الحاكم بأمر الله الفاطمي نفسه. وأيدهم هذا الرجل المتقلب وواساهم بماله وحمايته! وانتقل هؤلاء من الدعوة سراً إلى الجهر بعقيدتهم، وفي صحن جامع "عمرو بن العاص"؛ حتى ضجّ الناس من سنة ومن عقلاء الشيعة أنفسهم؛ وقتلوا بعضاً من هؤلاء.

لكن بقي منهم رجل اسمه "محمد بن اسماعيل الدرزي" أصر على ضلاله،

وكتب رسالة في تاليه "الحاكم"، ورفعها إليه عارضاً أصوله وأدلة مذهبه. وفرح الحاكم بالرسالة التي قدمت المبررات لجنونه وتحولاته، وقرب الدرزي إليه، وعهد إليه بالإشراف على شئون الدولة، بحيث يقف الوزراء والقواد على بابه!

ومن جديد يجهر الدرزي بدعوته في الجامع الأزهر، محتمياً بمكانته في الدولة وبالحاكم نفسه.

لم يبق في قوس الصبر منزع فانطلق أهل مصر إلى قصر الحاكم يطلبون الدرزي، وهو ينكره منهم، لكن المثير أن فرقاً من الجيش انضمت لجموع الناس، فدبر الحاكم خطة لتهريب داعي ألوهيته ليلحق بالشام، وأمده بالأموال اللازمة لينشر دعوته هناك، وقد أفلح الرجل في تكوين هذه الطائفة التي لم تندثر حتى الآن؛ الدروز!

بعد تفرق الناس والجند رأى الحاكم أنه لا بد من معاقبة الناس على ما اعتبره جرأة على ذاته، وهو الذي أجبرهم أعواماً طوالاً على الوقوف في المساجد إذا أتى الخطيب على ذكره، وهذا في كافة أنحاء المملكة حتى في الحرمين الشريفين، وجعل للمصريين تميزاً عن باقي الرعية فكان لا بد أن يسجدوا عند ذكره!

جمع اللعين العرفاء والقادة والعبيد ودبر معهم خطة الهجوم على المصريين في الفسطاط، وأوعز إلى شرطته بتجاهل ما يحدث!

ولعدة أسابيع انطلقت الغارات المنظمة لسلب الحوانيت والبيوت وإحراقها، وانتزاع النساء والبنات منها وبيعهن بيع الإماء. ولما انحاز الكبراء والاشراف

يكون بين يدي الجنود الأتراك والمغاربة ليكفوا عن الناس أوعز الحاكم إلى العبيد بالاستعداد لمواجهة الجميع، لكن الجنود حذروه من الهجوم على القاهرة، وهنا يقف الحاكم بين الطرفين لاعناً عبيده ومدعياً البراءة:

"قاتلهم الله من أمرهم بذلك؟"!!!

وكما حدث في كثير من الأحداث التاريخية التي مرت بها الأمة، دائماً يظهر من يجيب على التحدي الإجابة الصحيحة.

وكانت تلك الإجابة عند أخت الحاكم، السيدة "ست الملك".

نال هذه السيدة بعض الشرر من تقلب أخيها، فقد كان قاضي القضاة "مالك بن سعيد" يدرس لها العلم في القصر، ورغم بلوغها الخمسين اتهمهما الحاكم بالعشق، وكلم قاضي القضاة في ذلك ذاكراً له اسماء العديدين يتهمونه ويتهمون "ست الملك"، ويطالبه بالحكم عليهم بقطع الألسنة!

ولما تردد الرجل قتله رغم سابق محبته له.

أراد الله أن يريح العباد من هذا الرجل، واستعملت "ست الملك" خطة غاية في البساطة، فاستدعت قائداً يدعى "سيف الدولة ابن رواش" شيخ كتامة، وكان شديد الخوف من الحاكم ومن تقلبه، فأوحت إليه أن دوره قد حان ليتلقى البطش من سيده، ملحقاً إياه بخلق كثير من الوزراء والولاة والقادة والعبيد وعوام الناس.

وكان هذا كافياً ليتم الاتفاق على قتل الحاكم.

كانت "ست الملك" تعلم عن أخيها أنه يلبس ملابس الرهبان ويركب حماراً ويخرج للمقطم ليلاً لينظر في النجوم، وذلك على منعه للناس من النظر فيها.

وفي يوم الاثنين السابع والعشرين من شوال عام أربعمائة وأحد عشر للهجرة خرج الحاكم بأمر الله الفاطمي ولم يعد!

يحدثني البعض عن تجاهل يرونه لبعض أبطال الأمة الذين نتخذ من سيرتهم قدوة في العطاء والجهاد والصبر، ويراودني هؤلاء عن الكتابة عن صلاح الدين وقطز، وعن الأبطال المتقدمين خالد والقعقاع والمثنى.

والبعض ينتقد ما ظنه إغفالاً مني للسيرة النبوية المطهرة.

وغير هؤلاء وهؤلاء بعض من لهم آراء خاصة في التاريخ، لو تابعتها جميعاً لنقض بعضي بعضي.

ولو تابعت فرقة من فرق الناس المختلفين لبقيتُ في نظر من بقي مستحقاً للوم والنقد، فأين أذهب؟ ومتى اجتمع خلق الله على شيء؟

في حديث اليوم رد على الجميع بطريقة عملية، وسيجد الباحث عن البطولة حديثاً ربما يسمعه لأول مرة عن بطل مجاهد لا يتردد ذكره على المنابر كثيراً أو قليلاً، والله أعلم!

والمحبون لأبطال الصحابة رضوان الله عليهم قد يتعرفون على شخصية جديدة جديرة بكل إعجاب، على بعد قرون من جيل الصحابة العظيم.

أما من يرون التاريخ عجينة يشكلها الأقوياء بأهوائهم، فيختارون من الأحداث ما يوافق أغراضهم، فيرفعون ويضعون حسبما تملي عليهم الأهواء؛ فهؤلاء أخبرهم أني لست من الأقوياء في الأرض، ولا انشغال لدي بما في أيدي الناس، وعسى أن يحب الأقوياء ما بأيديهم وهو شر لهم، وعسى أن يكرهوا فراق ما في أيديهم وهو خير لهم.

فلنشرع في العمل...

ستة وتسعون عاماً وشهران وخمسة وعشرون يوماً عاشها "أبو المظفّر أسامة بن مُرشِد بن عليّ بن مُقَلَّد بن نصر بن مُنقذ الكناني"، قضاها في جهاد الصليبيين، وفي سفارة بين حكام عصره ساعياً بالخير، وفي تصنيف كتب قاربت العشرين. وفي كل هذا العمر أغنى الشعر العربي بأعذب الألحان وأصدقها.

وهي حياة مديدة خليقة بالتأمل والدراسة، عرف أهل الأدب والعلم قدرها قديماً وحديثاً، ولما يبلغوا في هذا ما يستحقه صاحبها!

هو ابن بيئته حقاً، فهو سليل أسرة بني منقذ العربية الأصيلة، كلهم فرسان شجعان، وكلهم أهل شعر ومتذوقون مجيدون.

حكمت الاسرة أطراف حلب وسكنوا قلعة شَيْزَر التي تعد أبرز العوائق أمام الطامعين في الداخل السوري؛ فلا عجب أن يطلبها المسلمون والصليبيون بالغالي والنفيس.

أخذها الروم من "صالح بن مرداس" واستردها سديد الملك علي بن مقلّد جدّ أسامة، وبقيت للأسرة حتى دمرها وقتل كل من فيها زلزال ضرب الشام سنة خمسمائة واثنتين وخمسين.

في طفولته يحبو إلى الأفعى وبقطع رأسها، وأبوه يشهد ذلك وهو به مسرور، رائياً في ذلك إعداداً لحياة لا خوف فيها ولا خور. كيف لا وهذا الأب يحمل جسمه الجراح الهائلة من قتال الإفرنج.

ونساء الأسرة بعض سِيَرهن تجذب الأنظار؛ فقد حدث أن هاجمت فرقة

الباطنية الحشاشين قلعة شَيْزَر والرجال غائبون عنها، فاستعدت النساء للمواجهة، ووضعت أمه أخته على نافذة تطل على الوادي، وقدرت أنه لو أخذ الحشاشون القلعة، فلن يأخذوا الفتاة إلا جثة هامدة!

حفّظه أبوه القرآن واستقدم له ولإخوته مشاهير يعلمونه الحديث والفقه والسيَر وكلام العرب والنحو والبلاغة، وحفظ من شعر الجاهلية عشرين ألف بيت.

وعوّده أبوه على ركوب الخطر ومواجهة الأسود، وكانت كثيرة في ذلك العهد في تلك الأنحاء، ومرّنه على الفروسية والقتال.

وفي هذه البيئة خرج لمواجهة الحياة رجل محارب وسياسيّ ذكي، ذو قلب لا تزعزعه الصدمات، وإن كان الشاعر المرهف الوجدان!

يقول عن نفسه بعد مجاوزته التسعين، في نثر بديع مأنوس:

"فلا يظن ظانّ أن الموتَ يقُدمه ركوبُ الخطر، أو يؤخره شدةُ الحذر، ففي بقائي أوضحُ معتبَر، فكم لقيتُ من الاهوال، وتَقَحّمْتُ المخاوفَ والأخطار، ولاقيْت الفرسان، وقتلتُ الأسود، وضُرِبت بالسيوف، وطُعنت بالرماح،وجرحت بالسهام. وأنا من الأجل في حصن حصين، إلى أن بلَغتُ تمام التسعين!"

وفي سن الخامسة عشرة يندفع لقتال الصليبيين في ثمانمائة فارس، ويبلي بلاء حسناً، لن يكون الأخير في عمره المديد. ويقربه عمه أبو العساكر إليه، وكان رجلاً لا ينجب. لكنه رزق البنين بعد طول انتظار، فتنكر لأولاد أخيه وكره

مقامهم في القلعة، خاصة أسامة الواعد! وتبدأ أولى رحلاته مرغماً ولم يرتكب جناية ولم يقع في ريبة.

وإلى الموصل يذهب إلى المجاهد الرائد "عماد الدين زنكي"؛ فينتظم لمقارعة الصليبيين تحت لوائه. فكأن الجهاد ينادي المستحقين للمجد، لكنه مجد لا يجرحه صراع السلطة، وندر من نجاه الله منه.

ورغم ما كان من عمه في شيزر لكنه خفّ مسرعاً لنجدته لما هاجمه الإفرنج. وكان جزاؤه منه بعد انجلاء الخطر أن أمره بالرحيل! فمضى حزيناً وهو لا يعلم أن زلزالاً سيجعل عالي شيزر سافلها سنة خمسمائة واثنتين وخمسين، ولن ينجو أحد من الحكام أو الرعية، إلا من كان خارجها!

ويذهب أسامة من شيزر إلى دمشق ليقيم فيها ثمانية أعوام يقوم خير قيام ناجح على ما يكلفه به حاكمها وصديقه "معين الدين أُنر". وللمرة الثانية يميل معين الدين إلى قومه من الترك، مقصياً هذا المجاهد المثالي. وتخوفاً من تدهور الامور بين الرجلين الصديقين يقرر الحكيم الزاهد الرحيل. وفي سفره ينشد قصيدة من أروع الشعر في العتاب.

وينزل بأرض مصر وهي تحت حكم الفاطميين وخليفتهم "الحافظ".

وهناك يُقابَل المقاتل الشهير أروع مقابلة، وبعد موته وتولية "الظافر" يحاول الوزير "ابن السلار" أن تُفيد الدولة من كفاية أسامة السياسية، فيرسله في مهمة إلى "نورالدين بن زنكي"، أملاً أن يناوش هذا الصليبيين فيكون ساتراً لتحرك القوات المصرية نحوهم. وعلى عدم تحقق ذلك التدبير فإن الرجل لم يضيع

وقته، وفعل ما يجيده وما خلق له، القتال! وبعض قتاله في هذه الفترة كان بمبادرة منه!

ثم يستدعيه ابن السلار للعودة، ورغم ما شابه به أسامة "صلاح الدين الأيوبي" في ابتعاده عن صراعات السياسة، لكن قُدّر للرجلين أن يعملا بها بعد إباء.

أما صلاح الدين فكان من أمره ما يعرفه الناس من خضوع مصر والشام له في وحدة تعيد بيت المقدس.

وأما أسامة بن منقذ فقد قرر الخروج من مصر بعد أن صنع القوم هناك كل ما لا يليق في الصراع على السلطة، وترك هذه البلاد بعد قتل ابن السلار والخليفة الظافر.

ويجدر القول إن أسامة لم يتورط في هذه الدماء.

وهكذا يقدر الله لهذا الرجل أن يحسن كل عمل يقوم به، ثم تنبو به كل أرض نُبُوّ الكريم.

ثم حملت الأسفار هذا الفارس إلى دمشق زمناً ثم قر قراره في حصن "كيفا".

وتلك فائدة الأدب والشعر والعلم. فمؤلفاته هناك تقارب العشرين.

ولم يفارق حصن كيفا إلا باستدعاء صلاح الدين له بعد أخذه دمشق، فنزل عليه شيخاً في الثمانين، وكان بمثابة مستشار له في إقامته، وعند سفره يكاتبه

ويشاوره في مهماته ومشكلاته.

وكي تعرف حالة هذا الشيخ في أواخر عمره انظر إلى ما كتبه قبل موته بستة عشر عاماً:

مع الثمانين عاث الدهر في جلَدي
وساءني ضعفُ رجلي واضطراب يدي
إذا كتبت فخطي جِدّ مضطربٌ
كخط مرتعِش الكفيْن مرتعدِ
فاعجبْ لضعف يدي عن حملها قلماً
من بعد حطَمْ القَنا في لبّةِ الأسدِ
وإن مشيتُ وفي كفي العصا ثقَلت
رجلي. كأني أخوض الوحل في الجلَدِ
فقل لمن يتمنى طول مدته
هذي عواقب طول العمر والمُددِ

ثم يرحل صاحب السيف والقلم بعد طول عمر وحسن عمل ومجد غير مجروح.

في جزيرة "جربة" التونسية اتفق أخوان مولودان بجزيرة "ميديللي" باليونان على هذا المعنى:

"إذا كان الموت نهاية كل حي فليكن ذلك في سبيل الله".

وتشرُف أناملي بالكتابة عنهما!

هما البحاران اللذان أمّرا نفسيهما على أرض الجزائر، بعد أن أذاقا بحرية الصليبيين الأمَرّين، وبمبادرة شجاعة منهما. عن الأخوين "خير الدين بارباروسا" و"عرّوج" أتحدث.

ومهمتي التلخيصية في هذا المقال صعبة؛ ذلك أن حياة هذين الرجلين شديدة الجاذبية والتشويق، وما إن تبدأ القراءة في مذكرات خير الدين باربروسا حتى يأسرك إخلاص لا تخالطه شائبة، وتبهرك فدائية خليقة بالتدريس، وتعيش وقائع وأحداث خطيرة تأثرت بها دول عظيمة.

لا أبالغ إن قلت لك إنها أحداث تستحق أن يتفرغ لها شاعر موفَّق ليكتب ملحمة من أروع ملاحم أمتنا، في الفترة التي تلت سقوط بقية الأندلس في يد الإسبان، وتطلعهم للمغرب العربي. ليفعلوا بمسلميه ما فعلوه بالأندلسيين، ومافعلوه بالهنود الحمر في أميركا.

وهي ذات الفترة التي شهدت أوج العظمة العسكرية للدولة العثمانية، وفي وجود دولة المماليك القوية.

أيّ شيء أكتب؟ وأيّ شيء أدع من كل هذا الزخم؟ الله المستعان!

لنبدأ بالأخ الأول "عرّوج"، وقد سمّاه الأندلسيون الفارون بدينهم "بابا عروج"؛ اعترافاً بفضله عليهم وإنقاذه إياهم من محنتهم القاسية. ثم تحوّر ذلك بمرور الوقت على اللسان الأوروبي إلى "باربادوسا". وقد حمل كلا الأخوين ذلك اللقب الذي أثار في مراكب الأعداء الحربية وغير الحربية فزعا لم يمحه استشهاد "عرّوج".

بدأ حياته وعدد من إخوته بالتجارة البحرية، وقد وقع في إحدى رحلاته أسيراً لدى قراصنة صليبيين من جزيرة "رودس"، وقد قتلوا أخاه "إلياس" بعد قتال مرير. ولم تفلح محاولات أخيه خير الدين في فدائه؛ بعد أن عرف الأعداء أن معهم صيد ثمين. لكنه أفلح في الهرب مستغلاً ظروفاً مناخية صعبة.

ثم بدأ طوراً جديداً ومدهشاً من حياته، فقد ركب البحر ثانية، ولم يدع سفينة لأي مدينة من مدن الأعداء في مأمن.

في إحدى رحلاته للأسكندرية اتصلت أسبابه بالسلطان المملوكي "قانصوه الغوري". وكان هذا السلطان يعيش أجواء اكتشاف البرتغاليين للطريق إلى الهند عن طريق الالتفاف حول إفريقيا. وجعل القراصنة البرتغاليون يسلبون السفن المسلمة، بل ويعترضون سفن الحجاج ويقتلونهم أو يبيعونهم، ثم صاروا يعتدون على السواحل الإسلامية المطلة على المحيط الهندي والبحر الأحمر.

ألم أخبركم أنها أحداث مثيرة!

وفي تدبير السلطان المملوكي لمواجهة البرتغاليين أمر بتجهيز أخشاب لبناء

أربعين سفينة، ولما ذهب عرّوج لأخذ الأخشاب من ميناء "باياس" وهو مع رجاله في ست عشرة سفينة عرف الرودسيون الخبر فأغاروا عليه بأسطول كبير، فاضطر لسحب السفن إلى البر إلى داخل الأراضي العثمانية وصرف رجاله إلى بلدانهم. لكنه أضمر الانتقام من الصليبيين فذهب إلى "أنطاليا" منطلقه القديم، وأعد سفينة أغار بها على سواحل رودس، حتى أنساهم فوزهم السابق.

واستطاع الرودسيون المصرون على الثأر من عروج حرق سفينته الراسية في أحد الموانئ لكنهم لم ينالوا منه، فقد ذهب إلى الأمير "قورقود" ابن السلطان العثماني "بايزيد الثاني"، وقد أمر له بسفينة مطاردة ليتمكن من مواصلة الجهاد، وحصل على أخرى، وقد حقق بهما انتصارات باهرة وغنائم كبيرة، ومضى إلى مسقط رأسه في "ميدللي". وهناك يلتقي أخاه خير الدين بعد فرقة بلغت أحد عشر عاماً!

كانت الأحداث في الدولة العثمانية صادمة للأخوين، فقد استولى أحد أبناء السلطان على الحكم من أبيه، وهو سليم خان، وعادى بقية إخوته ومنهم الأمير "قورقود".

ولهذا قرر عروج إعادة الاتصال بالسلطان "قانصوه الغوري" فاتجه للأسكندرية، وفي طريقه أغار على سبع سفن للعدو وغنمها، ثم قدم منها للسلطان هدايا عوضته عن خسارته السابقة.

ثم استأذن عروج السلطان وخرج إلى جزيرة قبرص، وغنم خمس مراكب تابعة لمدينة "البندقية".

ثم اتجه لجزيرة "جربة"، وهناك ستحدث نقلات نوعية في حياة ذلك المجاهد، إذ سيتمكن أخوه خير الدين من امتلاك سفينة خاصة به، وسيتجه بها إلى "جربة".

كذلك ستتحول هذه الجزيرة إلى قاعدة انطلاق لغزوات الأخوين للسواحل والسفن الصليبية، ضمن اتفاق مع سلطان تونس.

ثم قاما بمحاولة ناجحة للحصول على تأييد السلطان العثماني سليم الأول.

ختمنا الحلقة السابقة بوصول الأخوين "عرّوج وخير الدين خضر" المعروفين بالأخوين "بارباروسا" إلى تونس، وابتداء مرحلة جديدة من الجهاد البحري، وذلك بقبول سلطان تونس أن يكون ميناء "حلق الوادي" منطلقاً لحملاتهما البحرية على إسبانيا في الأساس وكل الدول الأوروبية التي تؤيدهم بالتأييد والمعاونة والإمداد البشري والمالي، وكذلك البابوية المتعصبة التي تقف من وراء ذلك كله بالتحريض والمباركة للنشاط الإسباني الرامي لاحتلال الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وكامل الساحل الإفريقي، أو الهيمنة عليه باصطناع حكام عملاء.

ولا نستطيع أن ننسى في هذا التلخيص أن السلطان العثماني سليم شاه أيّد النشاط البحري للأخوين معنوياً ومادياً، فلا مجال للتقول بأن نشاط الأخوين هو قرصنة. للأعداء أن يقولوا ما يشاءون من أقاويل التشويه، أما أن نسايرهم نحن في افتراءاتهم فهذا عجيب!

يحكي خير الدين كيف أخرجت أسبانيا مراكبها للبحث عن مراكب الأخوين، وكيف سقط في المعارك البحرية وأمام قلعة "بجاية" في الجزائر المئات من الشهداء، لكن الأعداء عرفوا أيضاً كيف أن هذه القوة المجاهدة المتطوعة لديها فوق الشجاعة مهارة القتال والتخطيط. ولديها صمود ورغبة في الاستشهاد أحدثت فارقاً في كل مواجهة. وفقد "عروج" إحدى ذراعيه في مقدمة رجاله، لكن ذلك لن يؤخره عن التقدم نحو أمنيته التي لم تبارح فكره؛ الشهادة!

ما إن تعافى عروج حتى خرج الأخوان مع بحريتهما تجاه سواحل الأندلس،

وكانت إلإمارة الأخيرة "غرناطة" قد سقطت في يد الإسبان، والمسلمون هناك واقعون تحت خطر محاكم التفتيش، الذي يعني الارتداد أو القتل والحرق والتعذيب؛ فجعل الأخوان قدراً من نشاطهما لإنقاذ هؤلاء البؤساء، بل وتسكينهم في المدن الإفريقية.

ويحكي خير الدين أيضاً كيف ذهبا لزيارة مسقط الرأس جزيرة "ميديللي" وكيف طرأ على عروج إحدى هذه الخواطر التي تراود المجاهد؛ أن يستريح هناك ويتزوج، لكنه رأى في المنام من يبشره بالكثير من الغزو والعز والشرف، فاستكملا نشاطهما البحري مصطحبين معهما المئات من الشباب المتطوعين الذين عرفوا بهذا النشاط، وازدادت القوة بمزيد من السفن المعادية التي وقعت في الأسر، وبالسفن التي أرسلها السلطان العثماني.

وقبل الاتجاه إلى "سبتة" لإنقاذ المزيد من مسلمي الأندلس تصل للأخوين رسالة خطيرة، حملها وفد من مدينة "بجاية" الجزائرية، جاء فيها:

"إن كان ثمّة مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال. لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم لما نلقاه من ظلم الإسبان. فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم. جعلكم الله سبباً لخلاصنا بتسليمه إيانا إليكم، فتفضلوا بتشريف بلدنا وعجلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار".

لم تكن الرسالة وحدها هي التي ستحدد اتجاه الأخوين للجزائر، لكن أمراً آخر يدعو للأسى -وإن كان لا يفاجئ قارئ التاريخ- يذكره خير الدين في مذكراته، وهو تغير نفس سلطان تونس على الأخوين؛ لما رآه من تبجيل

السلطان العثماني وهداياه لهذين المجاهدين المتجردين، وخشي أن يوليهما على تونس.

لكنه تنبأ -وربما أراد- أن يستكملا صعودهما بطريقة مختلفة؛ فقال لخير الدين: إن طريقك وطريق أخيك عرّوج سينتهي إلى القيادة العامة لبحرية الدولة العثمانية؛ فهنيئاً لكما بذلك.

في ألفين وثلاثة وثلاثين بحاراً اتجه المجاهدان لميناء بجاية الجزائرية، في عشر سفن، ومائة وخمسين مدفعاً، وآلاف الأسرى الذين يقومون بالتجديف. وبعد معركة مع الإسبان المتحصنين بقلعة بجاية تم قتل أكثرهم، ثم جاء عشرون ألفاً من عرب البوادي لمساعدة المجاهدين، وسنعلم في المستقبل أن هؤلاء هم سلاح ذو حدين! بالإضافة لعدم كفاءتهم الحربية.

ولم يكن مع المجاهدين المدفعية المخصصة لقصف الحصون فلم يتمكنوا من اقتحام قلعة بجاية، لكنهم علموا بأن قوة إسبانية كبيرة جاءت لإنقاذ القلعة؛ فاتخذوا قرارهم بترك بجاية مؤقتاً، ثم كمنوا لهؤلاء القادمين في "جيجل" وكانوا على متن عشر سفن ومشحونة بالأسلحة والمعدات العسكرية، وهنا قال عروج: هذه نعمة ساقها الله لنا.

وصدرت التوجيهات بالاشتباك معهم، وكعادة الأخوين في أغلب المعارك البحرية تمكنا من إفناء الإسبان، ولم يبق منهم إلا عشرات تم أسرهم. لكن هذا الانتصار ليس إلا مقدمة لما هو آت.

نشر المجاهدون الرايات الصليبية على السفن الأسيرة، وأمر خير الدين

خمسمائة بحار بالكمون فيها، واتجهوا نحو بجاية، وعندما رأى من في القلعة الرايات ظنوا أن إخوانهم في الدين جاءوا للنجدة، فلوحوا بقبعاتهم تعبيرا عن سرورهم.

يقول خير الدين في مذكراته:

وهكذا دنونا من القلعة الغارقة في فرحها الكاذب!

فتح الإسبان أبواب القلعة، وتدفقوا على قصورهم الساحلية لاستقبال النجدة الموهومة، وفجأة أمر خير الدين بحارته الكامنين بالهجوم، ولما سمع الإسبان تهليلهم اضطربت صفوفهم، وولوا منهزمين.

وبذلك فُتحت قلعة بجاية، بينما تعالت صيحات الإسبان صارخين بعبارة "ماينا سينيور" طالبين الأمان!

بعد فتح القلعة جاء شيوخ وقواد المناطق المجاورة لبجاية مبايعين. يقول خير الدين:

ومن هنا انتصبت أنا وأخي ملِكَين على هذه البلاد.

ولا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن عهداً من الراحة مقبل على هذين البطلين، فالجزائر بلاد واسعة، وفيها كثير من التأييد، وفيها كثير من الفتن. والقلوب تتقلب، وجماهير غفيرة من الناس أتباع لبعض الناعقين، وعدد من المسموع كلامهم في هذه البلاد لا يدركون الظروف الدقيقة للمسلمين، والتي يمكن معها أن تتحول الانتصارات إلى هزائم بسهولة!

وإذا عرفت أيها القارئ الكريم أن خير الدين عاش حتى الثمانين أدركت أن الحديث موصول بإذن الله، وإني لمستمتع بأن أعيش بذهني في تلك الفترة مع هؤلاء الكرام، أركب معهم سفنهم، وأرصد سفن الأعداء، وأضرب بسلاحي هامات الكافرين، وأمد يد العون لأبناء عقيدتي، وأواسيهم بما أستطيع.

وها أنا مع الأخوين بارباروسا نحتال لتخليص بلاد الجزائر من ظلم الإسبان.

نعم أنا في متاع في قلب هذه الأحداث، وعسى أن تكون كذلك!

يكتفي عدد من القراء بما نختصره لهم من أحداث تاريخية، وهم بهذا يحولونني إلى حكّاء!

ولم يكن ذلك في مقدمة أهدافي من هذه المقالات، وإنما رغبت أن نتوصل والقارئ الكريم -من خلال التاريخ وطريقتي في فهمه- إلى ما يشيع أفكاراً لدى الناس نافعة على كل صعيد، فترد عنهم غائلة اليأس الذي شاع فينا فأوهن منا العزيمة. ويرون أنه كلما ساءت من أمتنا أحوالها يقيض الله من يجد حلاً ما، ولو في أرض بعيدة!

وهناك غايات أخرى لهذه الخواطر.

وأقول لمن يتابع هذه المقالات إن الجهد الأكبر يقع عليك في القراءة والبحث؛ لتعلم ما حدث، ولتحلل هذا الذي حدث، ثم تتكون لك خواطرك وآراؤك التي ستجد طريقها إلى من حولك لا ريب، وإن تأخر ذلك.

وعلى ما تقدم فإن الذي يتوقع أن أعرض له كل مذكرات "خير الدين بارباروسا" لا شك مخطئ؛ فلست حكّاء، وإنما أنا مع التاريخ مثلك تماماً، أعرف منه وأجهل. لكن ما عرفته منه قد صنع شخصاً لا يُفاجأ، ولا تفجعه الانكسارات والهزائم فجيعة تُفقده الرجاء في حدوث الأفضل.

لن أروي لك كل ما حدث لكني سألقي لك في المختصر بعض الخواطر التي ستعينك على مواجهة ما يدور حولك، فلن تعود ذلك المستسلم اليائس، ولن تكون شخصاً يعيش في بقعة صغيرة من العالم ويراها كل العالم، وربما -والله قادر- رأيت في نفسك ما رآه الأخوان "بارباروسا" وقد اتفقا نظرياً وعملياً على

أنه ما دام الموت نهاية كل حيّ فليكن ذلك في سبيل الله.

وبالعودة إلى المذكرات ستجد أن خطوات الأخوين "بارباروسا" المباركة قد أفشلت مخطط إسبانيا في الاستيلاء أو الهيمنة على الجزائر وتونس وطرابلس الغرب.

وعلى هذه الأرض التي ارتوت بدماء الشهداء كُتِب فصل عظيم من المواجهة بين أمتنا وأعدائها، وتجاور في سبيل الأهداف العظيمة الترك والعرب بقيادة اثنين من مسلمي جزيرة "ميديللي" اليونانية رغبا بإخلاص في الشهادة، وهذه الرغبة هي التي صنعت الفارق، ودحرت الأعداء، وقاومت الخيانات المحلية التي كان لها -كما في الأندلس- أحقر الأثر!

حصل الأخ الأول "عروج" على ما سعى إليه طويلاً، فاستشهد في سبيل الله.

أما "خير الدين" فقد استقدمه السلطان سليمان ليكون القائد الأعلى للبحرية والأساطيل العثمانية، على أن ينيب أحداً لحكم الجزائر.

يذكر خير الدين أمرين في غاية الغرابة، أولهما أنه عرض على الصدر الأعظم بعد توليه الأسطول أن يبحر إلى الأرض الجديدة، وقد استدل مترجم المذكرات إلى العربية أن خير الدين كان يعرف أن الأمريكتين أرض جديدة، بينما ظن الإسبان الذين احتلوا هذه الأرض أنها جزر الهند الشرقية. لم يتحقق الأمر لأن تركيز دولة الخلافة كان على السيطرة على البحر المتوسط.

والأمر الآخر أن السلطان سليمان باح لخير الدين برغبته في فتح جديد

لإسبانيا. وهذا أيضاً لم يتم لاتساع الجبهات التي كان على الخلافة العثمانية أن تواجهها.

وأدرك تماماً الغصة التي يشعر بها القارئ الذي يعرف الآثار الهائلة لتوجه الغرب للأمريكتين على مستقبل العالم، والذي يعرف أن إسبانيا ما هي إلا الأندلس التي فقدناها.

وأقول لهذا القارئ المتوجع بحق:

تدرك الآن أن الأهداف العظيمة قد تكون أكبر من إرادة رجل أو حتى إرادة دولة، وهي أحوج لأكبر من ذلك.

أما عن الأعداء فقد أعدوا تدبيراً لو أفلح لانكشفت سواحل الدولة العثمانية، ولحدث أمر جلل لدولة الخلافة.

كالعادة تزعمت البابوية الدعوة لمعركة كبرى، فنظم البابا "بولس الثالث" للعدوان، ولبى تحالف أوربي نداء البابا بقيادة إسبانيا،. وقد جمع الأعداء لهذه المعركة ستمائة سفينة.

وفي خليج بروزة الاستراتيجي واجه خير الدين هذه الستمائة بمائة واثنين وعشرين سفينة.

لكنه يروي أنه كان مسيطراً على قواته وكل سفينة تحت قيادته، بينما خصمه "أندريا دوريا" ليست له هذه الميزة، بل افتقد السيطرة الكاملة على أجنحته. وبالإضافة إلى هذا امتلك خير الدين القدرة على المناورة بسفنه

خفيفة الحركة؛ والضرب والانسحاب السريع. وبادر هو بالهجوم على الأعداء، وكان عليهم أن يتصرفوا وفق تحركاته، وليس وفق خطتهم.

التفاصيل كثيرة لكن هذه المعركة تستحق أن تدرس بكل عناصرها ليتذكرها الناس بنتائجها المميزة، ومنها سيطرة الأسطول العثماني على البحر المتوسط أكثر من ثلاثين عاماً.

وكان على كارلوس ملك إسبانيا أن يجرب مرة أخرى مع خير الدين في الجزائر، وهناك يُهزم هزيمة تقعده في أحد الأديرة بقية حياته.

تمّ بحمد الله

فهرس



الكاتب الأديب
سعداوي التركي

يكتفي عدد من القراء بما نختصره لهم من أحداث تاريخية؛ وهم بهذا يحولونني إلى حكّاء!

ولم يكن ذلك في مقدمة أهدافي من هذه المقالات، وإنما رغبت أن نتوصل والقارئ الكريم -من خلال التاريخ وطريقتي في فهمه- إلى ما يشيع أفكاراً لدى الناس نافعة على كل صعيد، فترد عنهم غائلة اليأس الذي شاع فينا فأوهن منا العزيمة.

ويرون أنه كلما ساءت من أمتنا أحوالها يقيض الله من يجد حلاً ما، ولو في أرض بعيدة! وهناك غايات أخرى لهذه الخواطر.

وأقول لمن يتابع هذه المقالات إن الجهد الأكبر يقع عليك في القراءة والبحث؛ لتعلم ما حدث، ولتحلل هذا الذي حدث، ثم نتكون لك خواطرك وآراؤك التي ستجد طريقها إلى من حولك لا ريب، وإن تأخر ذلك.